عَوْن الرَّب الْوَهَّاب

فِى

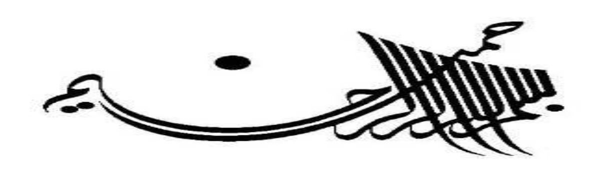
شَرح ثَلَاثَة الْأُصُول

لِمُحَمَّد بْن عَبْد الْوَهَّاب

أَعَدَّه

إِيَهَاب بْن عَبْد الْجَلِيْل

غفَرَ اللّٰهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِيْنَ



الْحَمْد لِلّه الّذِى يُجْزِل الْعَطَايَا ، وَيَتَفضّل عَلَى عَبْدِه بِأَنْوَاع النِّعَم ، فَبِفَضْلِه نَتَنَعّم ، وَبِنعَمِه نَتَقَلّب ، فَمَا تَرُوْح نعمة إلَا وَتَغْدُو أُخْرَى ، فَلَه الْحَمْد أَوّلَاً وَآخِرَاً ، وَظَاهِراً وَبَاطِنَاً عَلَى الْوَجْه الّذِى يُرْضِيَه عَنّا ، وَلَو تَأَمّلْنَا النِّعَم مِن حَوْلِنَا لَا نَكَاد نَجد نِعْمَة هِى أَجَل وَأَعْظَم مَن نِعْمَة التّوْحِيْد الّتِى بِهَا النّجَاة فِى الْدُّنْيَا و وَيَوْم الْمَعَاد ، أَلَم تَقْرَأ قَوَل النّبى صَلّى اللّه عَلَيْه وَسَلّم ((**منْ لَقِيَ اللّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئا ، دَخَلَ الْجَنّةَ**)) " صَحِيْح "

وَبَعْد :،

فَمَن الْكُتُب الْعَقَائِدِيّة الْمُخْتَصَرَة ، و الْمُتُون الْمُفِيْدَة الْمُحَرّرَة ، كِتَاب ((**ثَلَاثَة الْأُصُول**)) لِلْإِمَام الْمُجَدِّد مُحَمّد بْن عَبْد الْوَهّاب _ رَحِمَه اللّه _ وَقَد تَلَقّاهَا طَلَبَة الْعِلْم وَالْعَامّة بِالْحِفْظ وَالْمَدَارَسة ، لِكَوْنِهَا قَاعِدَة فِى الْعَقِيْدَة ، وَلَقَد وَهَب اللّه عَز وَجَل الْإِمَام مُحَمّد بْن عَبْد الْوَهّاب _ رَحِمَه اللّه _ حُسْن التّصْنِيْف ، وَدِقّة التّرْتِيْب ، وَقُوّة الِاسْتِدْلَال مَع جَزَالَة اللّفْظ وَجَمَال الْبَيَان ، وَقَد جَاءَت ثَلَاثَة الْأُصُول شَامِلَة لِذَلِك كُلِّه ، وَقَال عَنْهَا حَفِيْد الْمُصَنّف الْشّيْخ عَبْد الرّحْمَن بْن حَسَن _ رَحِمَه اللّه _ ((**فَمَا أَعْظَم نَفْعَهَا عَلَى اخْتِصَارِهَا لِطَالِب الْهُدَى**)) "" الْدُّرَر الْسّنِيّة ٤/٣٣٨"" فَفِيْهَا الْأُصُول الّتِى يَجب عَلَى الْإِنْسَان مَعْرِفَتُهَا ، وَهِى مَعْرِفَة الْعَبْد رَبّه ، وَأَنْوَاع مِن الْعِبَادَة الّتِى أَمَر اللّه بِهَا ، وَمَعْرِفَة الْعَبْد دِيْنَه ، وَمَرَاتِب الْدِّيْن ، وَأَرْكَان كُل مُرَتّبَة ، وَمَعْرِفَة الْنّبى صَلّى اللّه عَلَيْه وَسَلّم فِى نُبْذَة مِن حَيَاتِه ، وَالْحِكْمَة مَن بَعْثَته ، و الْإِيْمَان بِالْبَعْث وَالْنّشُور ، وَرُكْنَا الْتّوْحِيْد وَهُمَا الْكُفْر بِالطّاغُوْت ، و الْإِيْمَان بِاللّه لذا رأيت أن أكتب عليها شرحًا متوسطاً في تفسير آياتها وشرح أحاديثها وتوضيح مسائلها إسهامًا في تسهيل الاستفادة منها، والتشجيع على حفظها وفهمها ، وسميته : **"عون الرب الوهاب فى شرح ثلاثة الأصول لمحمد بن عبد الوهاب "**

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع به ، وإنى أعوذ بالله من نفسى أن أتكل عليها بشئ ، لضعفها وعجزها ، ولقلة حيلتى وبضاعتى ، فأنّى لى أن أنسب لها فضلاً وعلماً ، فله الحمد والشكر ، وأساله النفع والاستزادة لى ولك أخى القارئ إنه جواد كريم وبالإجابة قدير جدير .

كتبه الفقير إلى عفو ربه

إيهاب بن عبد الجليل بن عباس

ترجمة الشيخ محمد بن عبد الوهاب
– رحمه الله –

– **اسمه:** هو الإمام محمد بن عبدالوهاب بن سليمان بن علي التميمي الحنبلي النجدي.

– **مولده:** ولد الشيخ – رحمه الله – سنة ١١١٥ للهجرة النبوية في بلدة العيينة من بلاد نجد.

– **نشأته:** نشأ الشيخ في بيت علمٍ وشرف ودين؛ فقد كان أبوه عبدالوهاب قاضي العيينة ومفتيها، وجده سليمان كان مفتي الديار النجدية.

نشأ الشيخ في هذه البيئة العلمية وتأثَّر بها، فقرأ القرآن وحفِظه وأتقنه قبل بلوغ عشر السنوات، ثم اشتغل بطلب العلم، قال عنه أخوه سليمان بن عبدالوهاب: كان أبوه يتعجب من فهمه، ويعترف بالاستفادة منه مع صغر سنه.

– **رحلاته في طلب العلم**: حين بلغ الشيخ سنَّ الرشد، قدَّمه أبوه لإمامة الصلاة، ثم طلب من والده الحجَّ فأذِنَ له، ثم قصد المدينة، ثم رجع بلدة العيينة.

– سافر إلى الحجاز في طلب العلم، وأقام بها مدة يتردَّد بين مكة والمدينة، ثم رحل إلى البصرة في العراق لطلب العلم، وأقام بها مدة يأخذ عن العلماء، ويدعو إلى التوحيد، وضرورةِ الأخذ بالكتاب والسنة.

– ثم ذهب إلى الإحساء وأخذ عن علمائها، ثم توجَّه إلى حريملاء سنة (١١٤٠) للهجرة النبوية، وبعد ذلك ارتحل إلى العيينة عام (١١٥٣) للهجرة النبوية، ثم استقرَّ بالدرعية عام (١١٥٨) للهجرة النبوية.

– **مؤلفاته:** ألف الشيخ – رحمه الله – مؤلفات كثيرة، أغلبها في التوحيد، ومنها:

١– "كتاب التوحيد". ٢– "كشف الشبهات". ٣– "الأصول الثلاثة". ٤– "مفيد المستفيد بكفر تارك التوحيد".

٥– "نواقض الإسلام". ٦– "مسائل الجاهلية". ٧– "مختصر زاد المعاد".

– **وفاته:** توفي الشيخ – رحمه الله – في عام (١٢٠٦) للهجرة النبوية، بعد عمر يقارب (٩١) سنة، عَمَرَه بالدعوة إلى التوحيد والجهاد، والعلم والتعليم – فرحمه الله رحمة واسعة..

نبذة موجزة عن الرسالة

تتكلم هذه الرسالة الصغيرة عن الأمور التي يُسأل الإنسان عنها في قبره ، وهي ﴿ **من ربك _ ما دينك _ من نبيك** ﴾ وسميت ﴿ **ثلاثة الأصول** ﴾ ؛ لأن جميع الدين يرجع إلى هذه الثلاث أشياء ، ويتفرع منها .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في بعض رسائله : رسالة الأصول الثلاثة قررت فيها توحيد الإلهية ، وتوحيد الربوبية ، والولاء والبراء ، وهي أصل الدين .

تتميز هذه الرسالة من حيث الصناعة بثلاث ميزات :

١. سهولة الأسلوب : ، ووضوح العبارة ، فهي واضحة من حيث الفهم لا تحتاج إلى كثير شرح ، ولذا كانت تُقرأ في المساجد على عوام الناس ، فيفهمون محتواها بدون شرح .

٢. براعة التصنيف : وحسن الترتيب ، والتدرج مع القارئ ، ومن ذلك :

أ . الإجمال ثم التفصيل : فهو يجمل أولاً بعض المسائل ثم يفصلها .

كمـــا في قوله (**فإذا قيل لك : ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها ؟ فقل : معرفة العبد ربه ، ودينه ، ونبيه صلى الله عليه وسلم**) ثم تكلم عن هذه الأصول بالتفصيل .

ب . إيصال المعلومة بطريقة السؤال والجواب : ، وهو من الأساليب النافعة جداً في ضبط المعلومة ، وهو أسلوب نبوي كما في كثير من الأحاديث ، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم (**أخبروني بشجرة تشبه الرجل المسلم**...) ، و قوله صلى الله عليه وسلم (**هل تدرون ماذا قال ربكم** ...) .

٣. الإكثار من الأدلة : ، فلا يكاد يذكر مسألة إلا ويدلل عليها .

وهذه الميزة عامة في مؤلفات الشيخ ، ولذا تجد أن مؤلفات الشيخ أكثرها أدلة ، وانظر كتاب التوحيد ، وكشف الشبهات وهذه الرسالة .

وهذا هو الذي جعل البركة والقوة في هذه الدعوة المباركة ، فالخير والبركة والعلم والصلاح كله في كتاب الله تعالى ، وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

_ كانت هذه الرسالة من أوائل مؤلفات الشيخ رحمه الله قبل أن ينتقل إلى الدرعية ، لكن ألف قبلها كتاب التوحيد _ بدأه بالبصرة ، وأتمه في حريملاء لكن استحسن العلماء البداءة بهذه الرسالة ؛ لأنها كالمقدمة لكتاب التوحيد .

_ ولأهمية هذه الأصول الثلاثة نجد أن الشيخ يذكرها في كثير من رسائله ، بأساليب وألفاظ مختلفة .

تسميتها الأصح :

_ تسمى هذه الرسالة بـــ(ثلاثة الأصول) .

وللشيخ ــ رحمه الله ــ رسالة أخرى صغيرة أقل من هذه علماً ، ليعلمها الصبيان والصغار تلك يقال لها (الأصول الثلاثة) ، وأما ثلاثة الأصول فهى تلك الرسالة التى بين أيدينا ، ويكثر الخلط بين التسميتين ، ربما قيل لهذه ثلاثة الأصول ، أو الأصول الثلاثة ، لكن تسميتها المعروفة أنها ثلاثة الأصول وأدلتها .

محتويات هذه الرسالة :

يمكن أن نجعل هذه الرسالة المفيدة ثلاثة أقسام :

١. تمهيد : قبل أن يشرع الشيخ في الكلام عن الأصول الثلاثة قدم بثلاث رسائل ، تمهيداً للموضوع .

٢. صلب الموضوع : ويتكلم عن الأصول الثلاثة إجمالاً ، وتفصيلاً .

٣. القسم الثالث ضمنه مسائل متفرقة مثل بعض قضايا الآخرة : كالبعث والحساب ، ومسألة الكفر بالطاغوت .

تنبيه : ذكر غير واحد من أهل العلم أن هذه المقدمات الثلاث في أول الرسالة ليست من وضع الشيخ ، وإنما وضعها بعض طلاب الشيخ ، وأن كلام الشيخ يبدأ من قوله : (فإذا قيل لك : ما الأصول الثلاثة ...) .

قال الشيخ عبد المحسن القاسم حفظه الله عند شرحه لقول الشيخ (فإذا قيل لك : ما الأصول الثلاثة ...) : (هذه بداية رسالة ثلاثة الأصول ، وما سبقها هي رسائل متفرقة للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، وضعها بعض تلامذته قبل ثلاثة الأصول كالتقدمة لها ، كما حدثني بذلك

الوالد والشيخ صالح بن غصون رحمهما الله .) (١)

إعراب ثلاثة الأصول وأدلتها :

ثلاثة : خبر مبدأ تقديره هذه (هذه ثلاثة) خبر مرفوع بالابتداء وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره وهو مضاف .

الأصول : مضاف إليه مجرور بالتبعية وعلامة جره الكسره الظاهرة على آخره .

الواو : عاطفة .

أدلةُ : معطوف على ثلاثة مرفوع بالتبعية ، تبعية العطف ، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره وهو مضاف .

ها : ضمير متصل مبنى على السكون فى محل جر بالإضافة .(٢)

---

١) " هامش تيسير الوصول / صـــ ٤٥ "

٢) الوجه الأول من الشريط الأول لشرح متن الورقات للشيخ صالح آل الشيخ

بِسْـــمِ اللهِ الرَّحْمــَنِ الرَّحِيـــمِ

اعْلمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَع مَسَائِلَ:

المسألة الأُولَى: الْعِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ.

المسألة الثَّانِيَةُ: الْعَمَلُ بِهِ.

المسألة الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

المسألة الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ سورة العصر كاملة.

قَالَ الشَّافِعِيُّ ــ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ــ: لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ.

وَقَالَ البُخَارِيُّ ــ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ــ: بَابُ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ (قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ).(١)

---

(١) **هذه هي الرسالة الأولى من التمهيد .**

وخلاصتها : وجوب تعلم الأربع مسائل المذكورة، وذكر الدليل على ذلك.

قوله : ((بسم الله الرحمن الرحيم))

هذه الجملة هي أول جمل هذا الكتاب استهلها المصنف ــ يرحمه الله ــ بالبدء بالبسملة وهي : (**بسم الله الرحمن الرحيم**)

كسائر رسائل أهل العلم ومؤلفاتهم ، وذلك لعدة أمور :

١) اقتداء بكتاب الله عز وجل : حيث إن أول آية فيه هي : (**بسم الله الرحمن الرحيم**) ، وقد حكى الإجماع على أنها أول آي القرآن غير واحد من العلماء، ومن أولئك الإمام القرطبي ــ يرحمه الله ــ في : ((تفسيره)) .

٢) اقتداء بكتاب نبي الله سليمان – عليه السلام : – قال الله – تعالى –: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠].

٣) اتِّباعًا لسُنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : ومن ذلك أنه - **صلى الله عليه وسلم** - كان يبدأ بالبسملة في أوائل كتبه للملوك وما إليهم ، ومن أمثلة ذلك ما ثبت في "صحيح البخاري" من حديث أبي سفيان – رضي الله عنه –: أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كتب كتابًا إلى هرقل، ابتدأه بـــ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، فالبداءة بها سُنة متَّبَعة

(١) **بسم** : الجار والمجرور فى ((بسم الله)) متعلق بمحذوف فعل مؤخرٍ مناسبٍ للمقام تقديره ((بسم الله أكتب أو ((بسم الله أصنف))

وهنا فى الرسالة ((بسم الله أبدأ)) أو ((بسم الله أصنف)) .

وقدر فعلاً لأن الأصل في العمل الأفعال لا الأسماء .

وقدرمؤخراً لفائدتين:

الأولى: التبرك بالبداءة باسم الله سبحانه وتعالى.

الثانية: لإفادة الحصر لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر .

وقدر مناسباً لأنه أدل على المراد فلو قلنا مثلاً عندما نريد أن نقرأ كتاباً " بسم الله نبتدئ " ، لكن " بسم الله أقرأ " يكون أدل على المراد الذي أبتدئ به.

(٢) **الله** : علم على الباري جل وعلا وهو الاسم الذي تتبعه جميع الأسماء **ومعناه** : المألوه أى : المعبود محبة وتذللاً وتعظيماً

(٣) **الرحمن** : اسم من الأسماء المختصة بالله عز وجل لا يطلق على غيره

و معناه : ذو الرحمة الواسعة. وصيغة (فعلان) تدل على السعة وتدل على الإمتلاء فالرحمن : المتصف بالرحمة الواسعة

(٤) الرحيم يطلق على الله عز وجل وعلى غيره ،

ومعناه : ذو الرحمة الواصلة ، فالرحمن ذو الرحمة الواسعة، والرحيم ذو الرحمة الواصلة فإذا جمعا صار المراد بالرحيم الموصل رحمته إلى من يشاء

من عباده كما قال الله تعالى: ﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ﴾ {سورة العنكبوت، الآية: ٢١} .

واقتصر المؤلف على البسملة لأنها أبلغ فى الثناء والذكر .

قوله : ((**أعلم رحمك الله**)) :- فعل أمر من العلم وهى كلمة يؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة التى ينبغى للمتعلم أن يضغى إلى ما يلقى إليه بعدها قال الشيخ حافظ حكمى ((وهذه الكلمة يؤتى بها للإهتمام ، والحث على تدبر ما بعدها)) وما قرره المصنف هنا من أصول الدين حقيق بأن يهتم به غاية الإهتمام .

والعلم يعرف بأنه : {((إدراك الشئ على ما هو عليه إداركاً جازماً)) .) **ومراتب الإدراك ست .**

الأولى: العلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً.

الثانية: الجهل البسيط وهو عدم الإدراك بالكلية.

الثالثة: الجهل المركب وهو إدراك الشيء على وجه يخالف ما هو عليه.

الرابعة: الوهم وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد راجح.

الخامسة: الشك وهو إدراك الشيء مع احتمال مساو.

السادسة: الظن وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد مرجوح.

والعلم ينقسم إلى قسمين: ضروري ونظري.

فالضروري : ما يكون إدراك المعلوم فيه ضرورياً بحيث يضطر إليه من غير نظر ولا استدلال كالعلم بأن النار حارة مثلاً.

والنظري: ما يحتاج إلى نظر واستدلال كالعلم بوجوب النية في الوضوء. }[١]

وإنما أتى المصنف – يرحمه الله – بكلمة (**أعلم**) لفائدتين :

أما الفائدة الأولى : فلكي ينبه الأذهان التي تقرأ هذا الكلام بأهمية ما بعدها ، فإذا قيل لك بأن ما بعد كلمة (اعلم) مهمٌ ، فينبغي أن تتنبه له .

وأما الفائدة الثانية : فهي أهمية ما بعد (أعلم) ، إذ إن لفت الأذهان وتنبيه الإنسان بكلمة اعلم يُعقب في الغالب بكلام أو مادة علمية مهمة ، ولا ريب أن ما بعد كلمة (أعلم) مهم في هذه الرسالة العظيمة ؛ لكونه يتعلق بأصول الدين . قال الإمام محمد بن عبد الوهاب ـــ رحمه الله ـــ في بعض رسائله ، (**رسالة الأصول الثلاثة قررت فيها توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية والولاء والبراء وهي أصل الدين**) . ومن ثم كانت هذه الرسالة بمادتها ومحتواها مهمة غاية الأهمية .

قول المصنف – رحمه الله – : ((رحمك الله))

هذه الجملة دعائية فيها تلطف ولين ، والدعاء بالرحمة معناه : غفر الله لك ما مضى ، وعصمك فيما يستقبل ، فتشمل المغفرة أيضاً ؛ لأنها أفردت ، أما إذا جُمعا كانت المغفرة لما مضى ، والرحمة لما يستقبل .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : كثيراً ما يجمع المصنف رحمه الله بين الدعاء للطالب مع ما قرره ووضحه ، وهذا من حسن مسلكه ، ومحبته ، ورحمته بالمسلمين أ.هـــ

ورحمة الله نوعان :

أما النوع الأول : فرحمةٌ هي صفته سبحانه وتعالى ، فالله رحمان ، وذو رحمة واسعة سبحانه وتعالى ، ورحمته سبقت غضبه كما جاء في الخبر الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وأما النوع الثاني : فرحمةٌ متعدية إلى الخلق ، فهو سبحانه الذي أنزل رحمة واحدة من مائة رحمة يتراحم الخلق بها ، ورحمة الله متعدية ، فهي إلى المؤمنين تأييداً ونصرة ، وإلى الخلق أجمعين يتراحم بها هؤلاء الخلق ، فتجد الأم ترحم صغيرها ، إلى غير ذلك من آثار رحمته سبحانه ومقتضياتها ، والدعاء بالرحمة من عظيم الدعاء .

---

١) شرح الأصول الثلاثة للشيخ / محمد صالح العثيمين صـــ ١٥

وفي استعمال المصنف – يرحمه الله – لقوله (**رحمك الله**) دلالة على شفقته على المنعلم ؛ وهذا أسلوب دعوي جيد ، وهو يشمل جانبين :

١. **جانب اللفظ** : فلابد للداعية أن يتخير الألفاظ المناسبة التي تشرح صدر المدعو للدعوة ، كما قـــال صلى الله عليه وسلم لمعاذ : (يا معاذ : إني أحبك في الله ، فلا تدع أن تقول في دبر كل صلاة ....) وقال صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن عمر : (نِعم الرجل عبد الله لو كان يقوم الليل) متفق عليه ، وغير ذلك من الأحاديث .

٢. **جانب القصد** : فلابد للداعية حتى يكون ناجحاً أن يكون همه إنقاذ الناس من النار ، وأن يكون حريصاً على إرادة الخير لهم .

ومن ذلك قصة الغلام اليهودي الذي مرض فزاره النبي صلى الله عليه وسلم وعرض عليه الإســـلام فأسلم ، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من عنده قال : (الحمد لله الذي أنقذه من النار) رواه البخاري .

والسؤال المهم هنا : ماذا يستفيد النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الغلام الذي هو على سرير الموت ؟!

هل هو تكثير سواد المسلمين ، أو الاستفادة منه في الجهاد ، أو الدعوة ، أو التعليم ، أو غير ذلك .

والجواب : (الحمد لله الذي أنقذه من النار) هذه هي غاية الداعي الأساس.

قال ابن تيمية : وأئمة السنة والجماعة ، وأهل العلم والإيمان ، فيهم : العلم والرحمة والعدل .

وكان العلماء يَروُون ويُروُّون لمن بعدهم فيمن طلب الإجازة في الحديث، رواية حديث «الراحمون يرحمهم الرحمان»، وهذا الحديث هو المعروف عند أهل العلم بالحديث بالمسلسل بالأولية لما؟ لأن كل راو يقول لمن بعده "وهو أول حديث سمعته منه"فعلماء الحديث يروون هذا الحديث لتلامذتهم ويكون أول حديث فيما يروون ألا وهو حديث «الراحمون يرحمهم الرحمان» ففي الإجازات ترى أن كل شيخ يقول عن شيخه حدثني فلان وهو أول حديث سمعته منه، قال حدثني شيخي فلان وهو أول حديث سمعته منه، إلى أن يصل إلى منتهاه قال الرسول صلى الله عليه وسلم «الراحمون يرحمهم الرحمان، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، قال العلماء سبب ذلك أن مبنى هذا العلم الرحمة، ونتيجته الرحمة في الدنيا، وغايته الرحمة في الآخرة، لهذا الشيخ رحمه الله نبه على ذلك تنبيها لطيفا دقيقا .

حيث قال (**اعلمْ –رحمكَ اللهُ–**)؛ دعاء للمتعلم بالرحمة، ذلك لأن مبنى التعلم بين المعلم والمتعلم هو التراحم كلٌّ بما يناسبه.

قوله – رحمه الله – ((أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل))

دليل هذا الوجوب ما ذكره من سورة العصر ، حيث تبين أن جميع الناس في خسارة إلا من حقق هذه الأمور الأربعة .

قوله (يجب) من الوجوب ، والوجوب من تعاريفه أنه : ما يأثم المكلف على تركه ويثاب على فعله امتثالاً .

الوجوب على قسمين:

١- وجوب عيني :، وهو ما يجب على كلِّ فرد من أفراد الأمة.
٢- وجوب كفائي: وهو ما يجب على عموم الأمة، فإذا فعله بعض من يكفي، سقط عن الباقين.
قوله ــ رحمه الله ــ (تعلُّمُ أربــع مسائل)
(**تــعلُّم**) : أي طلب العلم ، بأن يسعى الإنسان في تعلم ومعرفة هذه الأشياء .
قوله : (**أربع مسائل**) إنما حصر المسائل الواجبات في أربع لدلالتين :
أما الدلالة الأولى : فالخبر ، وذلك ما سيذكره المصنف ــ يرحمه الله ــ في سورة العصر .
وأما الدلالة الثانية : فالإجماع ، وهو أن المسلمين قد أجمعوا على أن هذه الأربع هي الواجبات المتحتمات العينية على كل مكلف ومكلفة ، وإنما هي أشياء مجملة على ما يأتي تفصيله ــ إن شاء الله ــ . **قوله** : (**مسائل**) جمع مسألة ، والمسألة تُعرَّف بأنها : ما يُبحث عن برهانها ، أي : عن دليلها ، فكل مطلب أو مبحث يبحث عن برهانه ودليله يصح أن يُسمى في اصطلاح أهل العلم بالمسألة .
وجمع المسألة (مسائل) وأطلق المصنف ــ يرحمه الله ــ على هذه الأربع كلمة مسائل لوجود المعنى السابق فيها ، حيث إن المعنى السابق يحتوي على شيئين :
أما الشيء الأول : فهو أنها من الأشياء التي تُبحث أي : بين جنس الناس ، فمن الناس من يسأل عن العلم ما هو ؟ وما حد الواجب فيه ؟ إلى غير ذلك .
ومن الناس من يسأل عن العمل ما هو ؟ وما الحد الواجب فيه ، إلى غير ذلك مما يتعلق بما ذكره المصنف ــ رحمه الله ــ
وأما الشيء الثاني : فهو أنه يبحث عن برهانها أي : عن دليلها .
قوله – رحمه الله – (الأولى العلم) أى
المسألة الأولى: العلم:
والمقصود بالعلم في قول المؤلف هو العلم الشرعي، وكل علم مُدح في الكتاب والسنة ، وأثني على أهله فالمراد به العلم الشرعي .
قال المصنف : اعلم أن طلب العلم فريضة ، وأنه شفاء للقلوب المريضة ، وأن أهم ما على العبد معرفة دينه ، الذي معرفته ، والعمل به سبب لدخول الجنة ، والجهل به ، وإضاعته سبب لدخول النار ، أعاذنا الله منها أ.هـــ
والعلم الشرعي من أعظم العبادات ، وأجل القربات ، قال الزهري : ما عُبد الله بشيء أفضل من العلم .
وقد قال صلى الله عليه وسلم((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)) متفق عليه
ولذا فتحصيل العلم توفيق من الله عز وجل لمن شاء من عباده .
قال ابن القيم : والعلم يدخل قلب كل موفق   من غير بواب ولا استئذان

ويرده المحروم مـــن خـــذلانه لا تشقنا اللـــهم بالخذلان والعلم أنفس ما اشتغل به العبد ، قيل لسفيان الثوري : إلى متى تطلب الحديث ؟ قال : وأي خير أنا فيه خير من الحديث فأصير إليه .

وأخذ العلم ديانة وقربة ، فالعلم لا يؤخذ ثقافة أو هواية أو للتزين به ، عن سفيان الثوري قال : زينوا العلم بأنفسكم ، ولا تزينوا بالعلم .

وعن حبيب بن عبيد قال : تعلموا العلم ، واعقلوه ، وانتفعوا به ، ولا تعلموا لتتجملوا به ، فإنه يوشك إن طال بكم العمر أن يُتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل ببزته .

وبتحصيل العلم يسلم الإنسان من الفتن ، خاصة عند شدة التباسها ، فصاحب العلم صاحب بصيرة ، وهدى ، لا تختلط عليه الأمور ، ولا يقع في موج الفتن التي تتقاذف بالناس يمنة ، ويسرة .

يقول ابن القيم : فإن الراســـخ في العلم لو وردتْ عليه من الشُّبه بعدد أمواج البـــحر ما أزالت يقينه ، ولا قدحت فيه شكاً ، لأنه قد رسخ في العلم ، فلا تستفزه الشبهات ، بل إذا وردتْ عليه ردَّها حرسُ العلم وجيشه مغلولة مغلوبة .

والكلام عن فضل العلم وأهله كلام يطول يرجع إليه في مظانه ، وقد أفرد له العلماء قديماً وحديثاً مصنفات .

مسألة : ذكر المصنف هنا أن العلم واجب ، والحق أن العلم النافع منه ما هو واجب يأثم الإنسان بجهله ، ومنه ما هو مستحب ، وفرض كفاية يحسن تعلمه ، ولا يأثم بتركه إذا علمه من تحصل الكفاية به

وضابط العلم الواجب : كل ما لا يتم الواجب إلا به .

كالتوحيد ، وشروط الصلاة .... وكذلك العلم بالمحرمات .

قال الإمام أحمد : يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه ، قيل له : مثل أي شيء ؟ قال : الذي لا يسعه جهله : صلاته وصيامه ، ونحو ذلك أ.هــ

وهذا العلم يختلف باختلاف الأشخاص ، فقد يكون واجباً على شخص دون الآخر ، فالفقير مثلاً لا يجب عليه تعلم أحكام الزكاة ، ولا الحج ، ولا كثير من مسائل البيوع ، ولكن يستحب له ذلك .

وعليه نلاحظ أن ما ذكره المؤلف هنا يدخل في العلم الواجب العيني ، بل هو من أوجب الواجبات .

@ فائدة : ما هو العلم الذى يعنيه المؤلف هنا : بينه فقال (وهو معرفة الله ، ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام) وليعلم أن هناك من يُفرق بين كلمة (العلم) و(المعرفة) ، وهناك من لا يفرق بينهما ، وهو ما عليه جماهير أهل اللغة والمعرفة ، فالناس في العلم والمعرفة على مذهبين :-

المذهب الأول : فمن يجعل المعرفة بمعنى العلم فيقول : معرفة الشيء هو العلم به ، ومعرفة النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو العلم به .

وأما المذهب الثاني:- التفريق بين العلم والمعرفة ، واختلفوا في هذا التفريق على أقوال كثيرة ، لعدم وجود ضابط صحيح يرجع إليه في اللغة ، فمن قائل إن العلم أدنى من المعرفة مرتبةً ، فالمعرفة (إدراك الشيء على ما هو عليه خارج الذهن) ، ومنهم من قال غير ذلك والمصنف ـــ يرحمه الله ـــ يريد بالعلم المعرفة ، ولا يفرق بينهما ، ومشى في ذلك على مذهب الأكثرين من جماهير اللغويين وغيرهم .

وحاصل ما ذكره المصنف ـــ رحمه الله ـــ في المسالة الأولى : أن المسألة **الأولى هي العلم بثلاثة أشياء** :

أما الشيء الأول : فمعرفة الله سبحانه وتعالى .

وأما الشيء الثاني : فمعرفة النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الشيء الثالث : فمعرفة دين الإسلام .

فقوله – رحمه الله – (وهو معرفة الله)

أي أن يعرف العبد ربه معرفة تجعله يقبل على عبادته وحده دون ما سواه، ويتعلق قلبه بمولاه فلا يدعو إلا هو ولا يعبد إلا هو ولا يتوكل إلا عليه ولا يخاف إلا هو، وهذا العلم هو أشرف العلوم وأهله هم أخشى الناس وأتقاهم، فعلى قدر ما يكون في القلب من معرفة الرب جل وعلا، يمتلئ محبةً وخوفاً وتألهاً ولذا قال تعالى ﴿..إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ..﴾ (فاطر: من الآية٢٨)

والعلم بالله نوعان:

• **الأول: العلم بالله نفسِه.**

بأن يتعرف على صفات ربه من قدرة ورحمة وكرم وقوة وغنى، وعلمه بالخلائق وقيامه على الأمور وغيرها، ويتعرف على أسمائه الحسنى ويتأمل فيها ويتدبرها ويستشعر،معانيها، وهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب لصاحبه خشية وتعظيماً للرب لا محالة، فعرف العبد ربه ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم :"**إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**"رواه مسلم ولما قال رجل للشعبي رحمه الله أيها العالم قال: إنما العالم من يخشى الله.

وهذا العلم خطره عظيم كان السلف يتواصون به؛ لأنه يتعلق بالرب جل وعلا.

قال ابن مسعود رضى الله عنه :"**كفى بخشية الله علماً وبالاغترار بالله جهلاً**"؛ لأن ثماره على النفس والعمل والقلب ظاهرة، ومع ذلك فكثيرٌ من الخلق عنه غافلون مع أنه من العلوم العظيمة القدر التي يعظم على العبد نفعها في الدارين، وهي حجاب كثيف دون التقصير في جنب الله والوقوع في حدوده؛ ولذا قال السلف رحمهم الله:"ما عصى الله إلا جاهل"أي: جاهل بعظمة الرب وقدره وإن لم يكن جاهلاً بأحكامه وشرعه.

•**الثاني: العلم بشرع الله وأحكامه من حلال وحرام**

فيعرف الأحكام والواجبات والمحرمات،وهذا نوع عظيم حث الشارع عليه.

* **فائدة: الناس أقسام أربعة :**
١.عالم بالله وبأحكام الله فهذا أفضلهم.
٢.عالم بالله وجاهل بأحكام الله.
٣.عالم بأحكام الله وغير عالم بالله.
٤.جاهل بالأمرين جميعاً
فعلى العبد أن ينظر موقعه من هذه الأقسام { الفتاوى لابن تيمية ٣٣٣/٣}
(ومعرفة نبيه)
ومن العلم الواجب أن يعرف العبد من هو نبيه فيُقرُّ:
١/ انه عبد الله ورسوله.
٢/ ويمتلئ قلبه بحبِّه وطاعته.
٣/ويصدقه في أخباره، ويطيعه في أوامره، ويتبعه في هديه.
(ومعرفة دين الإسلام)
أي: ومن العلم الواجب أن يعرف العبد دينه الإسلام، وأنه هو الدين الحق من عند الله وبه خُتمت الأديان فلا يقبل من أحد ديناً سواه، ويعرف الأحكام التي لا يسعه جهلها من صلاة وطهارة وصيام ونحوها.
وقوله: – رحمه الله – "بالأدلة"، جمع دليل. والدليل فعيل بمعنى : فاعل . من الدلالة وهي الإرشاد، فالدليل هو المرشد إلى المطلوب، وهو إما سمعي : وهو ما ثبت بالوحي من كتاب أو سنة. وإما عقلي : وهو ما ثبت بالنظر والتأمل. وسيأتي شيء من ذلك في أثناء الرسالة .
وفي كلام الشيخ رحمه الله إشارة إلى أن مسائل العقائد إنما تُعرف بالدليل لا بالتقليد؛ فالتقليد لا ينفع في العقائد، وما ضلَّ مَنْ ضل في عقيدته إلا بسبب تقليده الأعمى العاري عن الدليل، أو بسبب تقديمه الاعتقادَ على الاستدلال، فيعتقد شيئًا، ثم يبحث عن دليل ليستدلَّ به على اعتقاده، فيجعل الكتاب والسنة تابعينِ، لا متبوعين، وهذا خطأ بيِّن، والصواب أن يستدل ثم يعتقد؛ ليكون اعتقاده مبنيًّا على ما جاء في الوحيَيْنِ: الكتابِ والسنة، وأما كلام أهل العلم، فهو موضِّح لما في

الكتاب والسنة، وليس دليلاً بذاته، **والقاعدة العقدية** المهمة في هذا الباب أن يقال: "**استدل ثم اعتقد، ولا تعتقد ثم تستدل فتزلَّ**"، كما نقلها غير واحد من أهل العلم، ولله در ابن القيم حيث قال في "الكافية الشافية":

العِلْمُ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ   قَالَ الصَّحَابَةُ هُمْ أُولُو العِرْفَانِ
مَا العِلْمُ نَصْبَكَ لِلخِلاَفِ سَفَاهَةً   بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فُلاَنِ

قوله – رحمه الله – (والعمل به)
العمل هو ثمرة العلم ، فالذي يتعلم ، ولا يعمل مغبون مفتون .
والعلم النافع هو العلم الذي يثمر العمل .
قال شيخنا في شرح كتاب التوحيد : فضرر العلم الذي لا ينفع أشد من ضرر الجهل ، وإذا وجد الجهل فإن الناس قد يطلبون العلم ، ويلتمسونه .
والعلم إنما يراد للعمل ، وإلا كان وبالاً على صاحبه .
قال حمد بن عتيق : العلم بلا عمل شجر بلا ثمر ، وحجة على صاحبه يوم القيامة .
ومن أعظم ما يخيف العبد قول النبي صلى الله عليه وسلم : لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ......
وذكر منها : وعن علمه ماذا عمل به . رواه الترمذي
قال شيخنا : العمل في الحقيقة هو ثمرة العلم ، فمن عمل بلا علم ، فقد شابه النصارى ، ومن علم ، و لم يعمل فقد شابه اليهود .
وقد كان السلف رحمهم الله يحفظون العلم بالعمل . قال بعض السلف : كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به .
وقد قيل : هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل .
بل العمل بالعلم يكسب العبد علوماً أخرى ، كما قال تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** ﴾ .
قال بعض أهل العلم : من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ، ومن لم يعمل بما علم أوشك الله أن يسلبه ما علم .
والعالم العامل تصل موعظته القلوب ، وينفع الله بكلامه ، ولو كان قليلاً ، وأما غير العامل فلا تتعدى موعظته الآذان .
قال مالك بن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب ، كما تزل القطر عن الصفاء .
وما أجمل قول الفضيل : لا يزال العالم جاهلاً حتى يعمل بعلمه ، فإذا عمل به صار عالماً .
ونقل الخطيب البغدادي في كتابه (اقتضاء العلم العمل) بسنده عن الشعبي قال : إنا لسنا بالفقهاء ، ولكنا سمعنا الحديث فرويناه ، ولكن الفقهاء من إذا علم عمل .
والعبد لا تكمل لذته بالعلم إلا بالعمل به ، قال عون بن عبد الله : إنما يحمل الرجل على ترك العلم قلة الانتفاع بما قد علم.
والعلم المجرد عن العمل يُخذَل صاحبه ولو بعد حين .
حدثني بعض الإخوة أن شيخه كان يقول لهم : لا يكن العلم شقاء عليكم .
قول المصنف – رحمه الله – : (**العمل به**) يقصد به : كل عمل أوجبه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لأن الأعمال المتعلقة بالدين نوعان :-

أما النوع الأول : فما كان واجباً على كل مكلف ومكلفة .
وأما النوع الثاني : فما كان غير واجب ؛ ولكنه مستحب مندوب إليه .
والنوع الأول هو المقصود في قول المصنف ــ يرحمه الله ـــ (العمل به) ؛ لأن المسائل الواجبة يجب العمل بها ، أما المسائل المستحبة المندوب إليها فلا يجب العمل بها ، والحاصل أن قول المصنف يرحمه الله (الثانية) أي : من المسائل ، (العمل به) أي : العمل بالمسائل الواجبة على المكلفين في دين الإسلام ، وهي كل ما أوجبه الله عز وجل سواء أوجب فعله أم أوجب تركه ، فيدخل في ذلك ما اصطُلح على تسميته بالفرائض والواجبات ، وما اصطلح على تسميته بالمحرمات والكبائر .
قوله – رحمه الله – (**الثالثة : والدعوة إليه**) .
قوله : (**الثالثة**) أى : من المسائل
قوله (**الدعوة إليه**) الدعوة مأخوذة من الدعاء ، والدعاء هو الطلب ، فإذا طلبت من الغير أن يفعل شيئاً ، فأنت داعية لهذا الشيء الذي طلبته منه ، فالدعوة إلى ما علمته من معرفة الله عز وجل ومعرفة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ومعرفة دين الإسلام ، تحصل بالدلالة عليها والطلب من الغير أن يعمل بها ، وهذا يأتي على أشكال وأنواع ، ومن ذلك الدعوة الشفهية ، أي : أن تطلب من الغير العمل بما أوجبه الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم بالمشافهة ، أي : بالكلام ، ومن ذلك أيضاً الدعوة بالمكاتبة ، أي : بالكتاب ، إلى غير ذلك من أساليب الدعوة ومجالاتها وأنواعها .
وأعلى مراتب الدعوة هي الدعوة إلى توحيد الله تعالى ، كما صدر كل نبي دعوته بالدعوة إلى التوحيد .
وقد مكث النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنوات بمكة يدعو إلى التوحيد ، ثم فرضت الصلاة ، وباقي الفرائض ، فأي دعوة لا تقتفي منهاج النبوة فمآلها البوار ، والخسران .
ولا بد أن يسبق الدعوة العلم بما يدعو إليه ، وكيفية الدعوة ، وهي شرط في الدعوة ، وإلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح قال تعالى عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّـهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ .
وللدعوة إلى الله شأن عظيم، وثواب جزيل؛ فقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: ((لأنْ يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم)) .متفق عليه
والأدلة على فضل الدعوة كثيرة، وينبغي للداعي أن يتصف بعدة صفات، أهمها:
١– الإخلاص:
بأن يكون الحامل على الدعوة ابتغاء وجه الله ورضاه، والإشفاق على المدعو والإحسان إليه، لا إظهارًا لجهل المدعو، ولا تمييزًا لحال الداعي وإظهار ما عنده من العِلم، والترفُّع على الخلق، ولا لأي غرض من أغراض الدنيا.
٢– الدعوة إلى الله على بصيرة وعلم فيما يدعو إليه:

قال – تعالى –: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

وكثيرًا ما يقع الخطأ في هذه الأمر، والعلم سلاح للدعوة لا تصلح بدونه، فلا بد للداعي أن يكون عالمًا بما يدعو.

وقال المؤلف في "مسائل التوحيد" عن الآية السابقة: "أما قوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾، فتنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيرًا من الناس وإن دعا في الظاهر إلى الله، فهو في الحقيقة يدعو إلى نفسه".

٣– الصبر:

وهذا ما سيأتي بيانه في المسألة الرابعة؛ ولأن الداعية سيواجه أصنافًا من المدعوين يختلفون في تقبُّلهم وردود أفعالهم.

٤– أن يكون على بصيرة بحال المدعو:

لأن المدعوين تختلف أحوالُهم، فيخاطبهم بما يناسب حالهم، وحينما بعث النبي – صلى الله عليه وسلم – معاذًا إلى اليمن، قال له: ((إنك تأتي قومًا أهل كتاب)) ، فبيَّن النبي – صلى الله عليه وسلم – لمعاذ – رضي الله عنه – حالَهم، وأنهم أهل كتاب عندهم علم؛ ليكون على بيِّنة، فيستعد لهم.

٤– أن يبدأ الداعي بالأهم فالأهم:

على حسب حال المدعوين، والبيئة التي يعيشون فيها؛ فمسائل العقيدة وأصول الدين تأتي في المقام الأول، وحينما بعث النبي معاذًا إلى اليمن، قال له: ((فليكن أولَ ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله)).متفق عليه

٥– أن تكون الدعوة بالرفق والحكمة والموعظة الحسنة:

وهذا هو منهج الأنبياء – عليهم السلام – في دعوتهم؛ قال – تعالى – عن نبيِّه – صلى الله عليه وسلم –: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال لموسى وهارون – عليهما السلام – حينما بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

قال ابن كثير: "إن هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى – عليه السلام – صفوة الله من خلقِه إذ ذاك، ومع هذا، أمر ألاَّ يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين".

وقال – تعالى – مبينًا هذا المنهج: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وفي السُّنة أخبار كثيرة تدل على هذا المنهج مِن فعلِه – صلى الله عليه وسلم – وقولِه.

قوله ــ رحمه الله ــ (الرابعة : الصبر على الأذى فيه) .

قوله (الرابعة) أى : من المسائل

قوله (الصبر على الأذى فيه)

والصبر لغة : الحبس .

شرعاً : حبس النفس عن التسخط ، واللسان عن التشكي ، والجوارح عن لطم الخدود... قاله ابن القيم .

قال الإمام أحمد : ذكر الله تعالى الصبر في تسعين موضعاً من كتابه .

وفي الحديث المتفق عليه قال صلى الله عليه وسلم (ما أعطى أحد عطاء خير وأوسع من الصبر) .

ومعلوم أن العلماء قسموا الصبر إلى ثلاثة أقسام

١-صبر على طاعة الله . ٢- صبر عن محارم الله . ٣- صبر على أقدار الله المؤلمة .

فعلى الداعية أن يكون صابراً على دعوته مستمراً فيها. صابراً على ما يعترضه هو من الأذى . والصبر على ما يلاقيه الداعي في دعوته هو منهج الأنبياء - عليهم السلام – أيضًا؛ قال الله - تعالى - تسليةً لنبيِّه - صلى الله عليه وسلم - وتبيانًا له أن هذا ما لاقاه الأنبياء قبله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]، وأمره بالاقتداء بهم، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال لقمان الحكيم في وصيته لابنه، مبيِّنًا له أن الدعوة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحتاج إلى صبر: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، نقل ابن القيم في "مدارج السالكين" عن الإمام أحمد: "أن الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا"

- على ماذا يصبر الداعي في دعوته؟

يصبر على عدة أمور، منها:

١- الصبر على إعراض الخلق عن دعوته:

وهذا هو دأب الأنبياء؛ قال نوح - عليه السلام - مناجيًا ربَّه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥ - ٧].

٢- الصبر على أذى المدعوين بأقوالهم وأفعالهم:

ولنا في رسولنا - صلى الله عليه وسلم - أعظمُ أسوةٍ، فقد قالوا عنه: ساحر وكذاب ومجنون وشاعر، وضربوه وطردوه، فواجه منهم أصنافَ الأذى المعنوي والحسي، وهو يصبر على أذاهم، ولما طرده أهلُ الطائف، خرج وهو مهموم، وحينما ناداه ملك الجبال بقرن الثعالب وأخبره أن الله يبعثه إليه، وقال له ملك الجبال: ((إن شئتَ أن أطبق عليهم الأخشبين))، وهما جبلان محيطان بأهل الطائف، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - بلسان الصابر المشفق عليهم: ((بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا)) .

وفي "صحيح البخاري": قال ابن مسعود: كأني أنظر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحكي نبيًّا من الأنبياء - عليهم السلام - ضربه قومُه حتى أدمَوْه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: ((اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون)).

والأدلة في هذا الباب كثيرة، تدل على صبرهم على ما يلاقونه من أذى.

٣- الصبر على طول طريق الدعوة، وعدم استبطاء النصر والتأييد من الله – تعالى –:

قال – تعالى –: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال – تعالى –: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

فعلى الداعية أن يصبر أيضًا على طول الطريق، ويستشعر أنه على طريق الحق، وأن النصر قد يتأخر لحكمة أرادها الله – تعالى.

قال – رحمه الله – (**والدليل**) الدليل : هو كل ما أرشد إلى مطلوب ، سمي دليلاً ، فلو أن زيداً أخذ بيدك إلى بيت تسأل عنه لا تدري أين موقعه ، لسمي زيد دليل عمرو إلى هذا البيت ، وكذلك يقال في الأدلة السمعية الخبرية ، كالكتاب والسنة ، والأدلة العقلية والنظرية ، كالقياس وغيره ، فإذا استدل الإنسان على مسألة من مسائل الدين بدليل من الكتاب والسنة ، فإن هذه الآية المستدل بها على الحكم الذي ذُكرَ من وجوب أو إباحة أو غيرهما تسمى في الاصطلاح والعرف بالدليل ، ولذلك قال المصنف ـــ يرحمه الله ـــ : (**والدليل**) أي على كون تلك الأمور الأربعة من المسائل هن مسائل واجبة لا بد منها .

قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّـــهِ الرَّحْمَـــن الرَّحِيمِ ﴾ : (بِسْمِ اللَّـــهِ الرَّحْمَـــن الرَّحِيمِ) هي آية من القرآن ، أُتي بها للفصل بين السور ، سوى سورة التوبة على اختلاف بين المفسرين والفقهاء في سبب عدم البدء بها ، وأرجح الأقوال هو اختلاف الصحابة ـــ رضوان الله عليهم ـــ هل سورة التوبة امتداد للسورة التي قبلها أم أنها سورة مستقلة ؟ ومن ثم تحرجوا من وضع البسملة في أولها .

وإنما ذكر المصنف يرحمه الله آية البسملة هنا لا لكونها داخلة في الدليل ، وإنما لافتتاح الدليل بالبسملة ؛ لأن افتتاح السور يُستحب أن يكون بالبسملة ، كما جاء في القرآن ، وأجمع العلماء على استحباب ذلك ، سوى سورة التوبة .

ثم ذكر قول الله تعالى . ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

هذه السورة دليل على وجوب المسائل الأربعة ، ووجه الدلالة أن من لم يحقق هذه المسائل الأربع فهو في خسارة .

قال السعدي في تفسيره : والخسارة مراتب متعددة متفاوتة . وقال في شرح منظومته للقواعد الفقهية : ومن فاته شيء من هذه الخصال كان له من الخسار بحسب ما فاته أ.هـــ

قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ الواو للقسم، والعصر هو المقسم به، والله جل وعلا يقسم بما شاء من مخلوقاته، فهو سبحانه وتعالى يقسم بنفسه، ويقسم بصفاته، ويقسم بأفعاله، ويقسم بما شاء من مخلوقاته، ومن ذلك القسم هنا، حيث أقسم

سبحانه وتعالى بالعصر وهو الزمان، لبيان شرفه وعظم مكانته، ثم أتى بجواب القسم ، لأن كل قسم لابد أن يكون له جواب ؛ لأنك إذا أقسمت ثم سكتّ فما فائدة قسمك ؟ أنت أقسمت على شيء ، هذا الشيء الذي أنت تريد من القسم هو الذي يُسمى عند اللغويين بجواب القسم وهو قول الله تعالى ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ ﴾ أى : جنس الإنسان فيشمل من اتصف بهذا الوصف .

قوله تعالى : ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ الخسر ضد الربح ، أى لفى خسارٍ كخسار التجار فى أرباحهم والخسران مراتب متعددة متفاوتة ، فقد يكون خساراً مطلقاً كحال من خسر الدنيا والآخرة وفاته النعيم واستحق الجحيم ، وقد يكون خساراً من بعض الوجوه دون بعض ، ولهذا عمم الله الخسران لكل إنسان ﴿ إِلَّا ﴾ من استثنى الله فى هذه السورة ممن اتصف بأربع صفات وهى المسائل التى ذكرها المصنف – رحمه –

أولها قوه سبحانه وتعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ . آمنوا بأيِّ شيء ؟ لم يبين في الآية ما الذي يجب الإيمان به، ليعم جميع ما يجب الإيمان به، فيكون المعنى: إلا الذين آمنوا بكل ما يجب الإيمان به مما يتعلق بالله عز وجل، ومما يتعلق بملائكته، وما يتعلق بكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وهل يمكن أن يتحقق الإيمان بلا علم ؟ لا يمكن أن يكون إيمان بلا علم، فالإيمان فرع العلم وثمرته، ولذلك قال المؤلف رحمه الله في المسائل التي تجب : الأولى العلم، ودليل العلم قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ والدلالة على هذا باللاّزم إذا أتى الاستثناء، كالاستدلال باستثناء الذين آمنوا على وجوب العلم، فهذه دلالة باللاّزم، لأنه لا يمكن أن يحصل إيمانٌ إلاّ بعلم، فمن لوازم الإيمان أن يكون صاحبه عالماً .

وأما المسألة الثانية : فهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ هذا الوصف الثاني من الأوصاف التي علق عليها النجاة من الخسار، وهذا يشمل كل عمل صالح ظاهرٍ أو باطن، واجبٍ أو مستحب، من حقوق الله أو من حقوق عباده، كل هذا يدخل في قوله: ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وانظر كيف أخّر العمل عن العلم، لأنه لا يمكن العمل الصالح إلاّ بعد الإيمان الذي لا يحصل إلاّ بالعلم النافع، ثم بعد أن ذكر هذين الوصفين ذكر وصفاً ثالثاً وهو دليل المسألة الثالثة التي يجب علينا تعلمها، وهي الدعوة إليه، قال: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ بالحق تواصوا أي: أوصى بعضهم بعضاً بالحق، والتواصي بالحق من صور وأنواع العمل الصالح، وإنما نص عليه وذكره لأهميته وأثره في حصول النجاة، ولئلاّ يظن الظان أنه باستكثاره من الأعمال الصالحة في نفسه يحصل له النجاة، وإن أهمل من يجب عليه نصحهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ولذلك جاء النص على التواصي بالحق مع أنه من الأعمال الصالحة.

والتواصي بالحق يشمل أن يوصي الإنسان نفسه بالحق، ويأمرها بالمعروف وينهاها عن المنكر، وكذلك يشمل أن يكون ذلك مع غيره ممن يعايشهم، سواء كانت له ولاية عليهم أم لم تكن له ولاية عليهم، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من حق أهل الإيمان بعضهم على بعض.

والوصف الرابع الذي تحصل به النجاة قوله: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً بالصبر، يعني أنواع الصبر كلها، والتي هي الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله تعالى، وهذا الأمر في هذه الآية ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ داخل في الذي قبله، فإن التواصي بالصبر من التواصي بالحق، وخصه بالذكر لأهميته وعظم أثره في تحقيق النجاة والسلامة من الخسار، وإن كان داخلاً مندرجاً فيما تقدم من العمل الصالح والتواصي بالحق، وبقدر ما يتصف الإنسان بما ذكر من الأوصاف في هذه السورة يحصل له بقدر ذلك من النجاة، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر، وإذا علم العبد المؤمن ذلك حرص أن يستكثر من هذه الصفات وأن يزداد منها، لأن بها يحصل له الفوز والسلامة من الخسارة المذكورة في قوله: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ وهذه الآية واضحة الدلالة على ما تقدم من وجوب تعلم هذه المسائل، ووجه ذلك: أنها نجاة للنفس من الخسارة، وقد بين الله سبحانه وتعالى طريق ذلك، وهو ما تضمنه الاستثناء في قوله: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ . فدل ذلك على وجوب الصبر، وعلى وجوب تعلّم هذه المسائل الأربع التي يتحقق فيها للمرء السلامة في الدنيا والآخرة .

قوله – رحمه الله – (**قال الشافعي – رحمه الله – "لو ما أنزل الله حجةً على خلقه إلا هذه السورة، لكفتْهم"**.)

الشافعي: هو أبو عبدالله محمد بن إدريس بن العباس، هاشمي قرشي، ولد في غزة سنة ١٥٠هـ، وتوفي في مصر سنة ٢٠٤هـ .

قوله (**رحمه الله**) تأدب فمن عادة أهل السنة والإنصاف والعلم أنهم يترحمون على أهل العلم والسنة .

قوله (" **لو ما أنزل الله حجةً على خلقه إلا هذه السورة، لكفتْهم** ") وفي لفظ { لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم } ، ونُقل هذا القول بألفاظ أخرى لا تخرج عن المعنى . وهذه المقولة التي حكاها المصنف ـــ رحمه الله ـــ عن الإمام الشافعي هي مقولة مشتهرة عن الإمام الشافعي ، أثبتها عنه أصحابه وغيرهم ، ومن الكتب التي أثبتت ذلك ((تفسير البقاعي)) ـــ رحمه الله ـــ في تناسب الآيات والسور ، فقد أثبت هذه القولة للشافعي ، وممن أثبت هذه القولة أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله ـــ كما في ((مجموع الفتاوى)) ، وقال : (وقد صدق فيما قال) ـــ يعني الإمام الشافعي رحمه الله ـــ في قولته آنفة الذكر .

والمصنف ـــ رحمه الله ـــ عندما ذكر قولة الإمام الشافعي عنى شيئين من ذكره لهذه القولة :ـــ

أما الشيء الأول : فهو التدليل على عظمة هذه السورة ، وأنها سورة عظيمة كريمة جمعت أصول الخير ، والواجب على كل مكلف ومكلفة ، وقد بُيِّن ذلك في المسائل الأربع السابقة .

وأما الشيء الثاني : فهو أن سورة العصر من السور التي كان الأولون يعرفون عظمتها ويستنتجون منها هذا الاستنتاج .

والاستنتاج نوعان : –

أما النوع الأول : فاستنتاج جملي عام ، يؤخذ من كلمة عامة ، ومن أمثلة ذلك قولة الشافعي السابقة ، ففيها من الفقه الشيء الكثير ، ومن هذا الكثير ما ذكره المصنف يرحمه الله في المسائل الأربع السابقة .

وأما الاستنتاج الثاني : فاستنتاج تفصيلي ، فهذا نوع معروف ، وهو أن يذكر الفائدة بعينها من آية أو سورة ، دون أن يجمل في الكلام ، أو الاستنباط والاستنتاج فهذان شيئان عناهما المصنف ـــ يرحمه الله ـــ عند إيراده لكلمة الشافعي يرحمه الله .

ومما يؤكد عناية السلف ـــ يرحمهم الله ـــ ما أخرجه الطبراني في : ((معجمه)) ، وأثبته السخاوي في : ((الأجوبة المرضية)) عن الأحاديث النبوية أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا قابل أحدهم أخاه كان يوصيه بسورة العصر.

والمراد من كلام الشافعي أن هذه السورة دالة على الدين كله إجمالاً لا تفصيلاً .

قال الشيخ ابن باز : فالدين كله إيمان ، وعمل ، ودعوة ، وصبر .

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين : مراده رحمه الله أن هذه السورة كافيه للخلق في الحث على التمسك بدين الله ، بالإيمان ، والعمل الصالح ، والدعوة إلى الله ، والصبر على ذلك ، وليس مراده أن هذه السورة كافية للخلق في جميع الشريعة . أ ،هـــ و الأمر كما قال الشافعي – رحمه الله –

قوله – رحمه الله – (وقال البخاري رحمه الله : باب العلم قبل القول والعمل . والدليل قوله تعالى ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللَّـهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ فبدأ بالعلم قبل القول والعمل)

قوله : البخاري : هو أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، من بخارى، ولد سنة ١٩٤هـــ، وتوفي سنة ٢٥٦، نشأ يتيمًا في حجر والدته، وهو صاحب "الصحيح" الذي يُعد أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى.

قوله (**رحمه الله**) تأدب من أهل السنة والمصنفين فى الترحم على أهل العلم والفضل .

وذكر المصنف ـــ رحمه الله ـــ قولة البخاري ـــ رحمه الله ـــ السابقة لسببين :-

أما السبب الأول : فليبين أهمية العلم ، وشرف مرتبته وعلوها ، وذلك واضح من شيئين:

أما الشيء الأول : فقول البخاري ـــ يرحمه الله ـــ (بابُ العلم قبل القول والعمل) فقدم العلم في قوله ـــ رحمه الله ـــ (العلم قبل القول والعمل) .

وأما الشيء الثاني : فقوله : (فبدأ بالعلم) فهذان الشيئان يدلان على ما سبق .

وأما السبب الثاني : أنه لا بد من تقدم العلم على العمل ، أما من يعمل جاهلاً ثم بعد عمله يتعلم فقد غلط ، فلذلك قسم أهل العلم والإسلام الناس في أمر العلم والعمل على طوائف ثلاث :-

أما الطائفة الأولى : فطائفة عندها علمُ ولكنها لا تعمل ، وهؤلاء هم اليهود .

وأما الطائفة الثانية : فطائفة عندها عمل ولكن على جهل ، وهؤلاء هم النصارى .

وأما الطائفة الثالثة : فطائفة الإسلام الناجية ، وهي التي جمعت بين العلم والعمل ، وهذا التقسيم جاءت الإشارة إليه في سورة الفاتحة في آخرها في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) ﴾. ومن ثم يتبين أن قولة البخاري ـــ يرحمه الله ـــ المحكية دلت على المعنيين السابقين ، فلا بد منها .

وقد حكى المصنف ـــ يرحمه الله ـــ قولة البخاري بالمعنى ، وإلا فنصها في صحيح البخاري هو قوله (بابٌ : العلم قبل القول والعمل) قال الله تعالى : (فاعلم انه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك) فبدأ بالعلم .

فزاد المصنف ـــ رحمه الله ـــ جملتين ، أما الأولى فقوله : (والدليل) ، وأما الثانية فقوله : (قبل القول والعمل) ، إلا أنها جملتان صحيحتان عند حكاية الجمل لا بلفظها ، وإنما بمعناها .

ثم ليعلم أن المصنف ـــ رحمه الله ـــ استشهد بقول البخاري (باب العلم قبل القول ... إلى آخره) وهذا القول من البخاري يسمى بـــ (الترجمة) أي : يترجم الأحاديث التي يوردها تحت باب واحد بجملة ، فيقول (بابٌ العلم قبل القول والعمل) فهذه الجملة تسمى بالترجمة ، والترجمة بمعنى توضيح الأحاديث التي تحت هذا الباب ، فهي تتعلق بهذا المعنى ، فهي تفسر ما تحتها ، ولذلك يقال : زيد ترجمان عمرو باللغة الفارسية ؛ لأن عمرو لا يتكلم إلا بالعربية ، فهو ترجمان ؛ لأنه يوضح له اللغة الأخرى ، فيترجمها إلى لغة يعيها ، كذلك يقال : (باب كذا) هو ترجمة لما تحته من الأحاديث .

وقد درج أهل العلم على الاستدلال بتراجم البخاري ـــ رحمه الله ـــ وما ذلك إلا لعظمة البخاري في تراجمه وأبوابه ، فهو يُحكم صنيع التراجم لأبوابه ـــ رحمه الله ـــ ، ومن ثم قال الحافظ ابن حجر ـــ يرحمه الله ـــ في : ((هدي الساري)) ـــ وهو مقدمة فتح الباري ـــ (قال بعض الناس : فقه البخاري في تراجمه) ، ومن ثم أورد المصنف ـــ رحمه الله ـــ قولة البخاري السابقة على وجه الاستدلال بها ، وهي مقرونة بدليل ظاهر ، وهي الآية السابقة ؛ لأن الله عز وجل قد بدأ بالعلم قبل العمل ؛ لأن الاستغفار صنيع اللسان والجوارح ، وأما العلم فمقدم على هذا الصنيع ، وهذا الصنيع هو المسمى بالعمل ، فتقدم العلم على الاستغفار ، والاستغفار نوع من أنواع العمل .

مسألة : ما مناسبة ذكر كلام البخاري هنا ؟

اختلف الشراح في معرفة مراد الشيخ من ذلك على أقوال :

١- لأن هذه الآية مصرحة بوجوب العلم ، أما آية العصر فهي عن طريق المفهوم) اللازم) .

٢- لأن هذه الرسالة كلها بيان للمسألة الأولى ، وهي العلم .

٣- للدلالة على ترتيب هذه المسائل ، فالعلم أولاً ثم العمل ، ثم الدعوة ، ثم الصبر .

وكلها محتملة ، والأقرب والله أعلم هو القول الأول ، لأن هذه الآية جاءت بصيغة الأمر الدال على الوجوب .

الرسالة الثانية

من الرسائل الثلاث التى سبقت

ثلاثة الأصول

الرسالة الثانية

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ مَسَائِل، والْعَمَلُ بِهِنَّ: **الأُولَى:**
أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾[المزمل: ١٥، ١٦].

الثَّانِيَةُ:
أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾[الجن: ١٨].

الثَّالِثَةُ:
أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[المجادلة: ٢٢]

....

هذه هى الرسالة الثانية من التمهيد :

وخلاصتها : وجوب تعلم ثلاث مسائل ووجوب العمل بهن ، وهى .

أولاً : توحيد الربوبية .

ثانياً : توحيد الألوهية .

ثالثا : مسألة الولاء والبراء .

وإليك بيانها وتوضيحها :

قوله – رحمه الله – (اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ مَسَائِل، والْعَمَلُ بِهِنَّ)

قوله (أعلم رحمك الله) هذه الكلمة سبق تفسيرها إذ إنها تكررت للمرة الثانية هنا .

قوله (**أنه يجب**) سبق بيان معناها .   (**على كل مسلم ومسلمة**) (**كل**) من ألفاظ العموم ، فتعم جميع المكلفين من المسلمين والمسلمات ، ومن الأحرار والعبيد ؛ فإن قوله (**كل**) يدخل على هذا المعنى العام وفسّره المؤلف ـــ يرحمه الله ـــ بقوله (**مسلم ومسلمة**) ولو اكتفى بكلمة مسلم لدخلت المسلمة ، وذلك لعموم قوله صلى الله عليه وسلم : ((**النساء شقائق الرجال**)) أخرجه أبو داود ، وهو حديث ثابت .

والمناسب في مختصرات الكتب والعلوم أن يُترك كل كلام هو زائد ، ويمكن أن يُستغني ببعضه عن بقيته ، وسبق أنه يستغنى عن كلمة (**مسلمة**) بقوله (**كل مسلم**) إلا أن المصنف ـــ يرحمه الله ـــ لم يأخذ بهذه القاعدة لمعنى : ألا وهو التأكيد على كون الإناث يدخلن في قوله (**كل**) الذي أدخله على كلمة مسلم .

وهذا التأكيد والتفسير للمعنى وإن كان بعض الكلام يغني عن بقيته، قد يذهب إليه بعض من أهل العلم والتصنيف في المختصرات لهذا المعنى ، وهو التفسير والتأكيد.

وإنما حكم على هذه المسائل بكونها واجبة لدلالتين :-

أما الدلالة الأولى : فالخبر ، وقد ذكر المصنف ـــ يرحمه الله ـــ جملة من الأدلة الدالة على هذه المسائل الثلاث كل بحسبه .

وأما الدلالة الثانية : فالإجماع ، حيث أجمع المسلمون على وجوب تعلم هذه المسائل الثلاث الآتية ، وقد نقل الإجماع في ذلك جماهير أهل العلم ، ومنهم ابن بطة العكبري في ((كبرى الإبانتين)) ، و شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله ـــ كما في ((مجموع فتاواه)) وكذا غيرهما.

قوله : (**تعلُّم هذه الثلاث مسائل**) : (**تعلم**) سبق تفسير هذا اللفظ .

(**هذه الثلاث مسائل**) (**هذه**) : اسم إشارة ، والمشار إليه هي المسائل التي سيأتي ذكرها ، وإنما كان استعمال المصنف ـــ رحمه الله ـــ لهذا الأسلوب من باب تعين المقصود ، فالمقصود يُعيَّن بطرق وأساليب في لغة العرب ، ومن هذه الطرق والأساليب : الإشارة ، فإذا قلت هذا الرجل ، وأشرت إليه ، فقد عيّنت الرجل بالإشارة ، بينما لو قلت فعل الرجل كذا وكذا ، لكانت كلمة الرجل في جملتك السابقة غير معينة ، خلافاً للجملة الأولى ؛ فإن الرجل قد عُيِّن بالإشارة .

والمقصود من التعيين هو تمام تحديد ما وقع عليه الحكم ، وهو الوجوب ، فالحكم أنه يجب على كل مسلم ومسلمة ، والشيء المعين هو الثلاث مسائل التي يأتي ذكرها .

وهذه المسائل الثلاث عليها يدور الدين وهي أصل أصوله ، ومَجْمَع فصوله ، كما قرره أئمة السنة والعلم ومن أولئك الإمام محمد بن عبد الوهاب كما في بعض رسائله وسبقت الإشارة إلى مقولته حيال ذلك .

فهذه الثلاث من المسائل هن المسائل الثلاث التي عناهن المصنف ـــ يرحمه الله ـــ في قوله السابق ،

فالمسألة الأولى ذكرها رحمه الله بقوله : (الأولى : أن الله خلقنا ورزقنا و لم يتركنا هملاً) إلى آخر كلامه ، وهذه المسألة هي مسألة توحيد الربوبية .

وتوحيد الربوبية هو إضافة كلمة توحيد إلى كلمة الربوبية ، وكلمة الربوبية تعود إلى كلمة الرب ، والرب له أكثر من معنى في لغة العرب ، ومن هذه المعاني المربي ، والسيد ، والمالك ، والمدبر .

أما توحيد الربوبية فمن أحسن تعاريفه أن يقال هو : توحيد الله عز وجل بأفعاله ، ومن أفعال الله عز وجل التي يجب أن يُفرد بها : الخَلق والرَّزق والإحياء والإماتة ، فهذه جملة من الأمثلة على ذلك .

فقوله – رحمه الله – (أن الله خلقنا)

والدليل على أن الله خلَقَنا النقلُ والعقل : ، وإذا قيل: النقل، فالمقصود به الكتابُ والسنة،

فمن النقل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]، ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]، وهذه الآية تدلُّ على اختصاص الخلق بالله – تعالى – والآيات في هذا الباب كثيرة.

وأما دلالة العقل : فيؤخذ من قوله – تعالى –: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

ووجه الدلالة : أنه عقلاً لا يمكن أن يخلق الإنسانُ نفسَه؛ لأنه قبل وجوده عدم ، ولا يمكن أن يأتي صدفة لهذا الكون؛ بل لكل حادث مُحْدِث، ولكل موجود خالق، والله – جل وعلا – خالق كل شيء، وهذا ما حصل مع جبير بن مطعم – رضي الله عنه – حينما قرأ هذه الآية ووعاها بقلبه وعقله، فقد كان مشركًا وسمع النبي – صلى الله عليه وسلم – يقرأ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥ – ٣٧]، قال جبير : "كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي" .رواه البخارى

قوله – رحمه الله – (ورزقَنا):

وأيضًا دلَّ على أن الله رزقنا النقلُ والعقل:

فمن النقل: من الكتاب قوله – تعالى –: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقوله – تعالى –: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومن السنة: حديث ابن مسعود المتفق عليه في قول النبي – صلى الله عليه وسلم – في الجنين: ((إن الله يبعث إليه مَلَكًا، فيؤمر بأربع كلمات: بكَتْبِ رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد)).

وأما العقل : فإن الإنسان لا يمكن أن يبقى في هذه الحياة إلا بطعام وشراب، والطعام والشراب خلقهما الله – تعالى – فهو خالق كل شيء – سبحانه.

قوله –رحمه الله – (ولم يتركنا هملاً)

دل على ذلك النقل والعقل:

فمن النقل: قوله – تعالى –: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، وقوله – تعالى –: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وأما العقل : فإن الله – تعالى – خلقنا ورزقنا، وأرسل إلينا الرسل، وأنزل علينا الكتب، وأمَرَنا بطاعته، ونهانا عن معصيته، فلو لم يكن هناك حسابٌ ولا عقاب ولا ثواب، لكان هذا من العبث الذي يُنزِّه الله – تعالى – عنه، ولكن شرع الله هذه الأمور لمعادٍ يجازي كل إنسان بما كسب، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وفي هذا دلالة على أنه – سبحانه – لم يتركنا هملاً.

قوله – رحمه الله – (بل أرسل إلينا رسولاً، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار)

وهذا تقرير لما سبق بأنه – جل وعلا – لم يتركنا هملاً؛ بل أرسل إلينا رسولاً، وهو محمد – صلى الله عليه وسلم – (فمن أطاعه دخل الجنة)، وهذا مقتضى الحكمة، ولهذا أدلة كثيرة، منها:

- قوله – تعالى –: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].
- وقوله – تعالى –: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وحديث أبي هريرة عند البخاري قال رسول الله: ((كل أمتي يدخلون الجنة، إلا من أبى))، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟! قال: ((من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى)).

(ومن عصاه دخل النار)، وهذا مقتضى الحكمة أيضًا، وله أدلة كثيرة، منها:

- قوله – تعالى –: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].
- وقوله – تعالى –: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وأيضًا حديث أبي هريرة المتقدم، وفيه: ((ومن عصاني فقد أبى)).

ثم استدل المؤلف على إرسال الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – والنتيجة فيمن أطاعه وعصاه، بقوله – تعالى –: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

وفي هذه الآية عِظة وعِبرة بأن الله – تعالى – أرسل إلينا رسولاً، كما أرسل إلى فرعون رسولاً، لكن فرعون لم يطع الرسول؛ بل عصاه، فكان أمره إلى وبال؛ أي: أخذه الله أخذًا شديدًا، وفي آية أخرى قال الله – تعالى – عنه وعن قومه: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وهكذا من عصى الرسول – صلى الله عليه وسلم – فسنةُ الله واحدة لا تتغيَّر ولا تتبدَّل.

هذا ما يتعلق بالمسألة الأولى، والتي هي في توحيد الربوبية في جملتها، وآخرها الحث على اتِّباع الرسول – صلى الله عليه وسلم – والبُعد عن معصيته.

قوله – رحمه الله – (**الثانية**) يعنى من المسائل التى يجب على كل المسلم ومسلمة تعلمها .

(أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .

والدليل قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّـــهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّـــهِ أَحَدًا ﴾)

وهذه المسألة تتعلق بتوحيد الألوهية ولها تعلق تعلُّق بالمسألة الأولى؛ فالمؤلف ختم المسألة الأولى ببيان وجوب طاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والتحذير من معصيته، وأعظم معصية يُعصى الله بها هي الشرك به؛ قال – تعالى –: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ورسالة الأنبياء وأعظم شيء دَعَوْا إليه، هو التوحيد.

قوله – رحمه الله – (أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل)

قوله (يشرك) الشرك مأخوذ من الإشراك .

والشرك فى الشرع : هو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله – تعالى .

والله – عز وجل – يوجب على عباده إفرادَه بالعبادة، فلا يرضى أن يشرك معه أحد، ولو كان ملكًا مقرَّبًا، أو نبيًّا مرسلاً، مع ما لهم من القرب والشأن العظيم عند الله – تعالى – إلا أن الله – جل وعلا – لا يرضى أن يكونوا شركاء له في العبادة، فكيف بغيرهم من الخلق ممن هو دونهم؟! لا شك أن ذلك أولى؛ وذلك لأن العبادة لا تصلح لغير الله – تعالى – من صَرَفها لغيره فقد وضعها في غير موضعها، وهذا هو الظلم؛ وضع الشيء في غير موضعه ؛ ولذا قال الله – تعالى –: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، والأدلة على نبذ الشرك كثيرة.

و الشرك نوعان:

١– شرك أكبر: لا يغفره الله – تعالى – إلا بالتوبة، فإن مات و لم يَتُبْ، فهو خالد مخلَّد في النار؛ كمن يدعو غير الله؛ قال – تعالى –: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

– **شرك أصغر**: وصاحبه إن لقي الله على ذلك، فهو تحت مشيئة الله؛ إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذَّبه؛ لكن مآله إلى الجنة؛ كمن يحلف بغير الله على غير وجه التعظيم؛ لأنه إن حلف بغير الله معظِّمًا لمن حلف به، دخل في الشرك الأكبر، ومثل الرياء؛ فهو شرك أصغر.

قوله – رحمه الله – (**أحد**) أحد نكرة فيدخل على جميع الأشياء ، سواء أكانت جماداً أم حيواناً . والحيوان هو كل ذي حياة ، فيشمل ذوات الأربع من البهائم العجماوات ، ويشمل الإنسان ، والجان ، ويشمل الملائكة ويشمل الآدميين

قوله – رحمه الله (فى عبادته) إذا وقع الشرك في العبادة سمي شرك الإلهية لوقوعه في العبادات ، أما إذا وقع في غير العبادة ، أي : في ربوبية الله وأفعاله وما إليها ، فهذا يسمي بالشرك في ربوبية الله وأفعاله .

قوله –رحمه الله – (لا ملك مقرب ولا نبي مرسل) : هذه الجملة هي زائدة ويكفي ما سبق عنها ، وإنما ذكرها المصنف ــ يرحمه الله ــ ليبين من باب التفسير على أن الشرك الذي هو صرف نوع من أنواع العبادة إلى غير الله لا يصلح لأي أحد ، ولو كان هذا الشيء من المقربين إلى الله أو من أفضل الخلق ، فذكر رحمه الله صنفين ، غيرهما لا يصح وقوع العبادة وصرفها إليهم من باب أولى :

أما الصنف الأول : فهم أقرب الخلق إلى الله الرب ، وهؤلاء هم الملائكة ويتفاوتون في القرب إلى الله ، فأعظمهم قرباً إلى الله عز وجل جبرائيل عليه السلام ، ولذلك أوصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى سدرة المنتهى حيث لا يصل إليها أحد .

وأما الصنف الثاني: فأفضل الخلق ، وأفضل الخلق هم المرسلون .

واختلف أهل العلم هل يُفرق بين الرسول وبين النبي ؟ أم أن دلالة كلمة الرسول كدلالة كلمة النبي ؟ قولان لأهل العلم :

جماهير أهل العلم وأكثرهم على القول بالتفريق بين دلالة الكلمتين ، ثم اختلفوا في هذا التفريق ما هو ؟ وما ضابطه ؟ إلا أن جميع التفاريق لا تنضبط ، ويأتي عليها شيء من الإيراد والنقض . وأحسن ما في الباب ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ في كتابه ((النبوات)) ، وهو أن يقال : النبي ما نبئ بالوحي وأنبأ غيره بما نبئ به ، خلافاً للرسول فهو منبئ لغيره ولكنه بشرع جديد .

ويتحصل من هذا التعريف أن هناك فارقين بين النبي والرسول:–

أما الفارق الأول : فهو أن الرسول أخص من النبي ، فالنبي معنى عام ، فكل رسول نبي ولا ينعكس .

وأما الفارق الثاني : فهو أن النبي يأتي مؤكداً لشرعة سابقة ، كهارون وغيره ، وأما الرسول فيأتي بشرعة جديدة ، كموسى وعيسى والنبي المرسل محمد صلى الله عليه وسلم .

فإذا لم يصح صرف شيء من العبادات لأقرب الخلق إلى الله عز وجل وهم الملائكة ، ولا لأفضل الخلق وهم الرسل ، فلا يصح صرف العبادات لغيرهما من باب أولى .

واستدل المؤلف – رحمه الله – على ما سبق بقوله تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

ووجه الدلالة: أن المساجد بيوت الله – تعالى – فكيف تدخل بيت الله – تعالى – وتدْعو معه غيره؟! وقوله – تعالى –: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، (أحدًا) نكرة في سياق النهي تفيد العموم، فيكون المعنى: فلا تدعوا مع الله أحدًا كائنًا من كان، لا ملكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسلاً، ومن كان دون ذلك، فمن باب أولى.

قوله – رحمه الله – (الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[المجادلة: ٢٢])

قرر هنا مسألة كبرى ، وأصل عظيم من أصول الإيمان وهو : موالاة أهل الإيمان ولو كانوا بعيدين ومعاداة من حاد الله ورسوله ولو كانأقرب قريب .

قوله – رحمه الله – (أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ) :(أن) مؤكدة ، (مَنْ) تكون هنا عامة ؛ لأن (من) من ألفاظ العموم عند اللغويون والأصوليين ، كما قرره العلماء .

فمن أطاع الرسول أي : أي طائع أطاع الرسول أي إنسان أطاع الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم ، فالرسول (ال) هنا للعهد الذهني ؛ لأن (ال) تأتي على أكثر من معنى ، ومن معانيها أن تستعمل للعهد ، ومن معاني العهد أن يأتي للعهد الذهني ، أي الرسول الذي هو معهود في أذهانكم أيها المخاطبون ، وهو النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فيكون المعنى : أن كل إنسان أطاع النبي محمداً صلى الله عليه وسلم .

قوله – رحمه الله – : **(وَوَحَّدَ اللهَ)** : أي جعل الله واحداً في ربوبيته ، وفي ألوهيته وفي أسمائه وصفاته .

قوله – رحمه الله – (لا يَجُوزُ لَهُ) : بمعنى يحرم عليه ، إذ إن التحريم يأتي بعدة ألفاظ ، ومن هذه الألفاظ لا يجوز .

قوله – رحمه الله – (مُوَالاةُ) : الموالاة من التولي ، أو من الولاء وهو بمعنى المحبة ، فلا يجوز للإنسان أن يقع منه موالاة ومحبة لمن حاد الله ورسوله .

قوله – رحمه الله – (مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ) ويطلق على الكافرين المبغضين أنهم حادوا الله ورسوله لأحد معنيين ذكرهما السلف يرحمهم الله كما في تفسير الآية :

أما المعنى الأول : فهو أن (حاد) من الحد ، والحد كون الإنسان في مكان ينفصل عن الآخر ، ومن ثم قيل المؤمنون في حد ، والكافرون المبغضون في حد آخر ، أي : المؤمنون الموحدون في مكان منفصل محدود عن الكافرين ، فلهذا المعنى قيل : من حادّ الله ورسوله ، أو هؤلاء الحادّون لأهل الإيمان .

وأما المعنى الثاني : فهو من الحديد ، فيكون المعنى : هؤلاء الكفار المبغضون الذين ليس بيننا بينهم إلا الحديد ، والحديد كناية عن آلة الحرب التي هي السيف والرمح ، ومن ثم فيوجه كلمة (حاد) على هذين المعنيين ، ومنه يفهم قول المصنف يرحمه الله (من حاد الله ورسوله) .

ثم قال – رحمه الله – : (**ولو كان أقرب قريب**) أي : فلا تجوز موالاته ولو كان أقرب قريب .

ورؤوس الأقارب أربعة أصناف :–

أما الصنف الأول : فأصول الإنسان ، وهم آباؤه وإن علو ، فلا يجوز للإنسان أن يتولى أباه المشرك ، ولا أن يتولى جده المشرك ولا أن يتولى آباءه المشركين .

وأما الصنف الثاني : فالفروع ، ويدخل في ذلك الأولاد وأعلاهم الأبناء ، فلا يجوز للأب أن يتولى أبناءه وبناته المشركين ولا أن يتولى آحاداً منهم ، فإن ذلك لا يجوز .

وأما الصنف الثالث : فالأعوان ، وهؤلاء هم إخوان الإنسان ، وأعلاهم الإخوة الأشقاء ، فلا يجوز للإنسان أن يتولى إخوانه المشركين أو الكفار

وأما الصنف الرابع : فعشيرة الإنسان ، وهم أقاربه الذين يتكثر بهم ، كما قاله الأصفهاني في ((مفرداته)) ، فأقارب الإنسان كقبيلته وبني جلدته الأقربين ، هؤلاء إذا كانوا مشركين لا يجوز أن يتولاهم ، فآل الأمر إلى موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين ولو كان المؤمن غريب النسب والبلد عنك ، فأخوك المؤمن ولو كان في أقلية مسلمة في مكان ناءٍ عنك ، فأخوك في الإيمان قريبك القريب إذا كان مؤمناً ،وأما الكفار فتعاديهم

ولوكان أصلاً أو فرعاً أو من الأعوان أو من العشيرة ، فالأخوة إنما هي أخوة العقيدة أي التوحيد ـــ أخوة الإيمان ـــ أما غيرها فهي لاغية في قيمتها في باب الولاء والبراء .

ثم استدل المصنف بقوله تعالى : ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(**لا تجدُ قوماً**) : (قوماً) نكرة في مساق النفي ؛ لأن كلمة تجد أتت مرفوعة فإذا أتت كذلك دل على أنه للنفي لا للنهي ، والنفي أبلغ من النهي في مثل ما نحن بصدده ، كما قرره اللغويون وأهل التفسير ، (قوماً) نكرة في مساق نفي فدلت على العموم أي : أي قوم سواءً أكانوا بعداء أم قرباء ، سواء أكانوا من المعروفين لديك أم من غير المعروفين .

(**يؤمنون بالله واليوم الآخر....**) إلى آخره : معناها ظاهر واضح بما سبق .

ثم بين الله سبحانه وتعالى ما يظفر به هؤلاء المؤمنون الذين يبغضون الكافرين ولو كانوا أباً أو أخاً أو ابناً أو عشيرةً أوقبيلةً يرفع الإنسان عقيرته فخراً بهم عند العرب فإنه يبغضهم ، بين الله سبحانه وتعالى فضل هؤلاء القوم في الدنيا ، وفي الآخرة وما يأتيهم من العطاء .

أما في الدنيا فيتحصلون على شيئين :

أما الشيء الأول : فقول الله تعالى عز وجل ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ (كتب) من الكتب ، والكتب في اللغة هو الجمع على وجه صحة ، ولذلك يقال : اجتمعت كتيبة الإسلام لمقاتلة الكافرين ، ففيها معنى الجمع ؛ ولكن على وجه صحة أي : جمع الله في قلوبهم الإيمان وجعله راسخاً ثابتاً ، ولذاك عادوا الكفار ، وإن كانوا قرباء منهم

وأما الشيء الثاني : الذي يظفر به هؤلاء في دنياهم : فقول الله تعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ بروح أي : بنور وهدى ، ومدد إلهي منه سبحانه وتعالى ، وإنما ذكر سبحانه قوله (بروح) أن هذا المدد والهدى والنور الذي يؤتاه صاحب هذه الحالة من موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين وإن كانوا أقرب الأقربين هو روح له ، فجسد لا روح فيه ولا نفع منه هو ميت ، ولذلك جعل ذلك في مقام الروح ، وهذا من أعظم التعبيرات وأحسنها وأدلها على المقصود .

وأما ما يأتيهم من العطاء في الآخرة : فبقية ما جاء في الآية .

فأول العطاءات : قوله سبحانه ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ وهذا أول العطاء فيدخلون الجنات لا جنة واحدة .

وأما العطاء الثاني : فقوله سبحانه ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي : أنهم لا يخرجون من الجنة ، وهذا تثبيت للنعمة عند حيازها ؛ لأن المرء إذا حاز نعمة طلب تثبيتها ، فجاءت الآية مبينة حوز النعمة لأولئك الموصوفين ، ثم مبينة لثبات هذه النعمة بعد حوزها .

وأما ثالث العطاءات : فقوله سبحانه ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ وهذا عطاء ثالث وهو رضا الله عن عبده ، وسبق معناه .

وأما العطاء الرابع : فقوله سبحانه ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ، وما ذلك إلا لتمام العطاء الذي أُعطوه حتى سبب القناعة ، وليس القناعة فقط بل أعلى منها وهو الرضى عن العطاء ، وهذه حالة تقع للإنسان عند وقوع تمام العطاء .

وأما العطاء الخامس : فوصفهم بأنهم ﴿ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ، والفلاح يقع للإنسان في مسيرته في أولاه وفي أخراه ، فهو إن وصف الإنسان به في أخراه كان عطاء ، لأن الفلاح يوجب له العطاء ، والعطاء هو الذي لا عين رأته ولا أذن سمعت به ولا خطر على قلب صاحبه .

ثم وصف الله عز وجل أولئك الصنف بأنهم ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ فهؤلاء أصحاب حزب ، وهم من تحزبوا واجتمعوا على ما يرضي الله عز وجل فيوصفون بأنهم حزب الله وأنهم تحزبوا على الإيمان وما يرضي الله عز وجل .

وأكد الله فلاحهم بقوله ﴿ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ثم قوله﴿ الْمُفْلِحُونَ ﴾ دخلت (أل) على معنى الفلاح ، وهذا من التأكيد العظيم لفلاح القوم نسأل الله عز أن نكون من أولئك .

و الكلام عن الولاء والبراء وما ذكره المؤلف يتضمن عدة أمور .

- تعريف الولاء والبراء :

الولاء لغة: قال ابن فارس: الواو واللام والياء: أصل صحيح، يدل على القرب، من ذلك الولي: القريب، والباب كله راجع إلى القرب .

وقال ابن منظور: "والموالاة: ضد المعاداة، والولِيُّ: ضد العدو... والوَلْيُ: القرب والدنو" "مقاييس اللغة"، لابن فارس (٦/ ١٤١)

- والولاء شرعًا : هو النصرة والمحبة والاحترام ظاهرًا وباطنًا.

- والبراء لغة : قال ابن فارس: "التباعد من الشيء ومزايلته، من ذلك البرء، وهو السلامة من السقم، يقال: برئت وبرأت" . "مقاييس اللغة" ١/١٣٦

والبراءة شرعًا: البعد والخلاص والعداوة، بعد الإعذار والإنذار.

قال شيخ الإسلام في أصل الولاية والعداوة: "والولاية ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد" . "الفرقان"، ص ٥٣.

- والولاء يكون للمؤمنين، والبراء يكون من المشركين :

قال حفيد المؤلف الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب في شرح قوله - صلى الله عليه وسلم -: ((ووالى في الله)): "هذا بيانٌ للازم المحبة في الله، وهو الموالاة؛ إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجردُ الحب؛ بل لا بد مع ذلك من الموالاة، التي هي لازم الحب، وهي النصرة والإكرام والاحترام، والكون مع المحبوبين باطنًا وظاهرًا"."تيسير العزيز الحميد"، ص ٤٨٠.

وقال في شرح قوله - صلى الله عليه وسلم -: ((وعادى في الله)): "هذا بيانٌ للازم البغض في الله، وهو المعاداة فيه؛ أي: إظهار العداوة بالفعل، كالجهاد لأعداء الله، والبراءة منهم، والبعد عنهم باطنًا وظاهرًا؛ إشارة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب؛ بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه" .

- جاءت نصوص كثيرة مستفيضة تدل على تحريم موالاة الكفار، منها:

١- ما استدل به المؤلف: قوله - تعالى -: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

٢- قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: "والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله – تعالى ذكره – نهى المؤمنين جميعًا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارًا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أن من اتَّخذهم نصيرًا وحليفًا ووليًّا من دون الله ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم في التحزب على الله ورسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منهم بريئان".

وقال ابن القيم: "إن الله حكم – ولا أحسن من حكمه – أنه من تولى اليهود والنصارى، فهو منهم؛ قال – تعالى –: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٥١]" . "أحكام أهل الذمة"، ٦٧/١.

٣– قوله – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

قال الشيخ حمد العتيق: "فأما معاداة الكفار والمشركين، فاعلم أن الله – سبحانه وتعالى – قد أوجب ذلك، وأكَّد إيجابه،وحرَّم موالاتهم وشدَّد فيها، حتى إنه ليس في كتاب الله – تعالى – حكمٌ فيه من الأدلة أكثر ولا أبْين من هذا الحكم، بعد وجوب التوحيد، وتحريم ضده"،"مجموعة التوحيد"، ص ٦٣٦. وكذا السنة دلت على ذلك.

– هل كل موالاة للكفار كفرٌ وردَّة؟

هذا سؤال مهم للغاية، ولبيان ذلك؛ نقول ما يلي:

أولاً : أهل العلم لا يختلفون في أن هذا الباب باب عظيم، الداخل فيه قد أضرَّ بعقيدته وثوابته، وقد يهدمها بحسب ما والى فيه، فبالجملة هو بابٌ مَن تهاون فيه فقد تهاون في أصل عظيم من أصول الدين؛ فعن ابن عباس قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأبي ذر – رضي الله عنه –: ((أيُّ عرى الإيمان أوثق؟))، قال: الله ورسوله أعلم، قال: ((الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله)) .صحيح

– ويقول الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ: "والمرء قد يكره الشرك، ويحب التوحيد، لكن يأتيه الخلل من جهة عدم البراءة من أهل الشرك، وترْك موالاة أهل التوحيد ونصرهم، فيكون متَّبعًا لهواه، داخلاً من الشرك في شعب تهدم دينَه وما بناه، تاركًا من التوحيد أصولاً وشعبًا لا يستقيم معها إيمانُه الذي ارتضاه، فلا يحب ولا يبغض لله، ولا يعادي ولا يوالي لجلال من أنشأه وسوَّاه، وكلٌّ هذا يؤخذ من شهادة أن لا إله إلا الله" . "الدرر السنية"، ٣٩٦/٨.

ثانيًا : موالاة الكفار بحسبها؛ فهي على مراتبَ، منها ما هو كفر وردَّة، ومنها ما هو دون ذلك.

ثالثًا : بناءً على أن موالاة الكفار تختلف باختلاف الحال؛ فهي على مراتب؛ قسَّم بعض أهل العلم الموالاة إلى قسمين: (موالاة كبرى، وموالاة صغرى)، أو (تولي، وموالاة) أو (موالاة عامة مطلقة، وموالاة خاصة)، أو (الموالاة المطلقة، ومطلق الموالاة)، وكلها مصطلحات تجمع بين قسمين، فمنهم من يُعبِّر بهذا اللفظ، ومنهم بهذا، ومقصودهم في ذلك – رحمهم الله – هو التفريق بين الموالاة التي يكون صاحبها كافرًا مرتدًّا حلالَ الدم والمال، وبين ما دون ذلك مما لا يُخرِج

من الملة، وبعض أهل العلم لم يقسم هذا التقسيم، وجعلها مراتب، منها ما هو مخرِج من الملة، ومنها ما هو كبيرة من الكبائر لا يكفر فاعلها إلا إذا استحلَّها؛ أي: اعتقد جوازها، وقالوا: إن التولي والموالاة لفظان لمعنى واحد، وهو قول جمهور المفسرين.

- قال الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب: "مسمى الموالاة يقع على شُعب متفاوتة، منها ما يوجب الردة وذَهاب الإسلام بالكلية، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات" .

رابعًا : أمثلة على الموالاة الكبرى وعلى الموالاة الصغرى:

الموالاة الصغرى تسميتها صغرى ليس لأنها من الصغائر؛ ولكن للتفريق بينها وبين الكبرى، وإلا فإن الموالاة الصغرى شأنُها عظيم - كما تقدَّم - فهو باب لا يُستهان به. ومن أمثلتها: تصديرُ الكفار في المجالس، وزيارتُهم زيارةَ مؤانسة لا دعوة، وتهنئتُهم بأفراحهم الدنيوية، وإفساحُ
الطريق لهم، وتوليتُهم على المسلمين، وجعلُهم رؤساء، ورفعُهم على المسلمين ونحوها.

والموالاة الكبرى: وهي الموالاة المخرجة من الملة، فهي كفر وردَّة، ولها صور، منها: مودتهم لأجْل دينهم وسلوكهم، والرضا بأعمالهم، وتمني انتصارهم على المسلمين، وعدم تكفيرهم أو التوقُّف في كفرهم والشك فيه، وتصحيح مذهبهم، والتشبُّه المطلَق بهم، ومظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، وتُسمَّى النصرة.

الرسالة الثالثة

من الرسائل الثلاث التى سبقت

ثلاثة الأصول

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ، أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَبذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات: ٥٦]. وَمَعْنَى ﴿يَعْبُدُونِ﴾: يُوَحِّدُونِ، وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ. وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئ﴾[النساء: ٣٥]

هذه هى الرسالة الثالة من التمهيد :

وخلاصتها : بيان حقيقة التوحيد ، ووجوب تعلمه ، والعمل به .

قوله – رحمه الله – (اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ) هذا دعاء من المؤلف – رحمه الله – فيه تلطُّفٌ للمدعو، وكل من يقرأ الرسالة بأن يرشده الله لطاعته.

والرشد : هو الاستقامة على طريق الحق، وهو ضد الغي؛ لأن الغي هو الضلال – نسأل الله السلامة والعافية.

والطاعة : هي موافقة أمر الشرع، بفعل المأمور، واجتناب المحظور.

قوله – رحمه الله – (أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) .

الحنيف : مشتق من الحَنَف . قال ابن القيم : أصل الحنف الإقبال ، ثم وصف بلازمه وهو الميل ، لأن المقبل على شيء مائل عن غيره .

فالحنيف : المائل عن الشرك قصداً إلى التوحيد . أو : المائل عن الشرك المائل إلى التوحيد .

فيكون معناه : المقبل على الله ، المعرض عن كل ما سواه .

وعرف الحنيفية بقوله : أن تعبد الله مخلصاً له الدين .

وهذا أمر بالتوحيد ونهي عن الشرك ، لأن قوله : (مخلصاً) تنفي الشرك

وملة إبراهيم هي التي أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم باتباعها ، كما قال تعالى﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ ، وهي ملة جميع الرسل ، لأنها ملة التوحيد .

ومعنى الملة لغة : مأخوذة من الملل ، وهو التكرار والمعاودة . ومنه (الملل) وهو تكرار الشيء على النفس .

و شرعاً : ما شرعه الله على لسان رسله من العقائد ، والأحكام ، فهي بمعنى الدين .

قوله – رحمه الله – : "أن تعبد الله":

العبادة في اللغة : الذلُّ والخضوع، تقول العرب: طريق مُعبَّد؛ أي: مذلَّل،

وفي الشرع : كما عرَّفها شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: "العبادة: اسم جامعٌ لكل ما يحبُّه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الظاهرة والباطنة" .

فيدخل في التعريف الصلاةُ والزكاة والصيام والحج، والمحبةُ والخوف والرجاء، والتوكلُ والاستعانة، ونحو ذلك مما سيأتي بيانه – بإذن الله.

* **وقوله: – رحمه الله – "مخلصًا له الدين":**

والإخلاص : هو أن يقصد العبدُ بعمله رضا الله وثوابَه، لا شيئًا من حطام الدنيا، فمن جمع بين هذين الأمرين، وهما: العبادة والإخلاص لله – تعالى – فيها، فقد جاء بالحنيفية، ودل عليهما أدلة كثيرة، منها:

- قوله – تعالى –: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].
- وقوله – تعالى –: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣].
- وقوله – تعالى –: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].
- وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

ومن لم يأتِ بأحد هذين الأمرين، وهما العبادة والإخلاص، لم يأتِ بالحنيفية، وبناءً عليه عُرف أن من يدْعون غير الله، ويعبدون القبور والأضرحة، ويذبحون لها، ويطوفون بها، ونحو ذلك، وقعوا في الشرك الأكبر، وإن سمَّوا أنفسَهم مسلمين، فهم ليسوا كذلك؛ لأنهم ليسوا على الحنيفية، فهم جاؤوا بعبادات؛ ولكنهم لم يخلصوا بها لله – تعالى – فهم ليسوا حنفاء.

قوله – رحمه الله – ((الدين))

هو ما يدن به : أى ما أنزله الله عز وجل فى كتابه ، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم مما أمر به ، وهذا كله هو الدين .

قوله – رحمه الله – (وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا) .

(**وبذلك**) : إشارة إلى مشارٍ إليه ، والمشار إليه هو الإخلاص في العبادة ، فجملة (أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين) هو المشار إليه بقوله (**وبذلك**) ، خلاصة هذه الجملة هو الإخلاص في العبادة ، قال المصنف : (**وبذلك**) أي : بالإخلاص في العبادة أمر الله جميع الناس .

(**أمر الله**) أي أمْرَ إيجاب وإلزام وجعله فرضاً مُتَحَتِّمَاً لا أنه على جهة النفل والاستحباب والندب .

(**جميع الناس**) جميع من ألفاظ العموم فدلت على أن المقصود جميع الخلق .

قوله – رحمه الله – (الناس) يقصد به بنى آدم فإنه ذكر بنى آدم والجن داخلون في ذلك ، أو أن يكون الناس بمعنى النوس والحركة فيقصد به كل متحرك من المكلفين وليس إلا الجن والإنس .

قوله – رحمه الله (**وَخَلَقَهُمْ لَهَا**) أي : خلق الله عز وجل هؤلاء الناس للعبادة (**لها**) أي للعبادة .

واستدل المصنف – رحمه الله – على ذلك بقوله – تعالى –: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومعنى يعبدون: يوحِّدون.

ففي هذه الآية دلالةٌ على أن الله خَلَقَ الخلقَ وأوجدهم؛ لأجل أن يأتوا بالملة الحنيفية، فيعبدوه ويخلصوا له العبادة، فأمر بذلك الجن والإنس.

والجن : عالم غيبي لا نراه؛ لأنه مخلوق من نار، بخلاف الإنس، فهم مخلوقون من طين؛ قال – تعالى –: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥].

فعالم الجن عالم مخفي، واجتماع الجيم مع النون في لغة العرب يدلُّ على الستر، فلاستتارهم سُمُّوا جنًّا، وهم مكلَّفون بالعبادة والتوحيد، ومنهيُّون عن المعصية والشرك، يدل عليه ما استدل به المؤلف: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وفسَّر المؤلف (يعبدون) بـــ

قوله – رحمه الله – (يوحدون) ، والتوحيد : هو إفراد الله بالعبادة – كما سيأتي.

وبالحنيفية أمر الله – تعالى – جميع الأمم؛ قال – تعالى –: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

– التوحيد أعظم ما أمر الله به عباده:

التوحيد في اللغة : مِن وحَّد يوحِّد توحيدًا؛ أي: جعله واحدًا لا ثاني له، **وفي الشرع** : عرَّفه المؤلف بقوله: إفراد الله بالعبادة.

وتعريف المؤلف هنا تعريفٌ لتوحيد الألوهية، ولم يأتِ بغيره من أنواع التوحيد؛ لأنه أراد بيان التوحيد الذي حصل فيه النزاعُ والجدال، وشُرع من أجله الجهاد، والذي بُعثتْ من أجله الرسلُ – عليهم السلام – وهو توحيد الألوهية.

وقوله : "إفراد الله بالعبادة"؛ أي: تفرده – جل وعلا – بكل شيء: أقوالنا، وأفعالنا، ومقاصدنا.

وأما تعريف التوحيد بمعناه العام، فهو إفراد الله – تعالى – بالربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات.

وهذه هي أنواع التوحيد الثلاثة:

١– **توحيد الربوبية** : هو أفراد الله بالخلق والتدبير؛ قال – تعالى –: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦].

٢–وتوحيد الألوهية : هو إفراد الله – تعالى – بالعبادة، وهو الذي ذكره المؤلف، وتقدَّم سبب إيراده؛ قال – تعالى –: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

٣– وتوحيد الأسماء والصفات : هو إفراد الله – تعالى – بما سمَّى به نفسَه، ووصف به نفسَه في كتابه، أو على لسان رسوله – صلى الله عليه وسلم – وذلك بإثبات ما أثبته، ونفي ما نفاه، من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

قوله – رحمه الله – (وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّرك، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئ﴾[النساء: ٣٥])

والشرك قسمان :–

أما القسم الأول : فشرك أكبر ، وله أمثلة ، وسبق تَجْلِيَتُه بضرب أمثال عليه .

وأما القسم الثاني : فشرك أصغر ، ومن أمثلته الحَلِفُ بغير الله ، فإن الحَلِفَ بغير الله كفر وشرك أصغر ولذلك أخرج الإمام أحمد في مسنده والترمذي في جامعه وحسنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)) ، وهذا فيه دلالة على المقصود ، ومن أمثلة ذلك أيضاً يسير الرياء الذي يقع ويَعْرِضُ لبعض الناس في جملة من عباداتهم ، كصدقة أو صلاة أو غيرهما . أما كبير الرياء وكثيرُه فهذا من الشرك الأكبر لا من الشرك الأصغر ؛ لأن الإنسان إذا مَحَّضَ العبادة لغير الله أو جعل غيره معه فهذا هو عينُ الشرك الأكبر خلافاً ليسير الرياء العارِض فهذا من الشرك الأصغر ، والشرك الأصغر والشرك الأكبر يدخلان في الشرك أصالة .

واختلف أهل العلم والسنة ، هل الشرك الأصغر مما يكفِّره الله -عز وجل- ويدخل تحت مشيئته أم أنه لا يدخل تحت المشيئة ؟

هما قولان لشيخ الإسلام ابن تيمية ــــ يرحمه الله ــــ في بعض كتبه .

و أكثر الفقهاء والمفسرين وأهل السنة على أن الشرك الأكبر هو الذي لا يدخل تحت المشيئة فقط خلافا للشرك الأصغر فإنه يدخل تحت المشيئة.

وذهب آخرون إلى أن الشرك الأصغر لا يدخل تحت المشيئة ، وإنما يدخل تحت ترجيح أعمال الإنسان فَتوُزَنُ أعمال الإنسان يوم القيامة فيصار إلى ما رجح من أعماله ، إن رجحت كِفَّةُ السيئات سير به إلى النار فعوقب وعُذِّب ثم مآله إلى الجنة لوجود التوحيد عنده ، وإن كانت قد رجحت كِفَّةُ الحسنات سير به مباشرة إلى الجنة دون أن يُذهب به إلى النار ، وهذا مقام مخيف ولذلك كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يخافون من الشرك الأصغر خوفاً عظيماً وخافه النبي صلى الله عليه وسلم على أُمَّتِه والمقصود بالأمة هنا ، أمة الإجابة ، لا أمة الدعوة

فالأمة أُمتان :–

الأول : أمة دعوة ، وهذه يدخل فيها من أجاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن لم يُجبه أي : يدخل المؤمن والكافر ، فالجميع أمة تُدعى وداعيهم هو النبي صلى الله عيه وسلم .

الثانية : أمة الإجابة ، وهؤلاء هم المؤمنون الذين أجابوا النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته فأخوف ما يخافه النبي صلى الله عليه وسلم على أمته هذا النوع وهو الشرك الخفي وفسره النبي صلى الله عليه وسلم بيسير الرياء وهو داخل في الشرك الأصغر .

– لماذا الشرك أعظم ما نهى الله عنه؟

الجواب: لأن أعظم حقٍّ على العبد في هذه الدنيا حقُّ الله – تعالى – وحقُّ الله – تعالى – إفرادُه بالعبادة، فإذا أشرك مع الله غيره، ضيَّع أعظمَ الحقوق، وارتكب أعظم ما نهى الله – تعالى – عنه؛ ويدل على ذلك حديثُ ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: سألت أو سئل رسول الله: أيُّ الذنب عند الله أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك)) .

ولذا فإن الذي يترتب على الشرك أشياءُ عظيمة، منها:

١– أن الله – تعالى – لا يغفر لمن لم يتب منه؛ قال – تعالى –: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

٢– أن الله حرَّم عليه الجنة، فهو خالد مخلَّد في نار جهنم؛ قال – تعالى –: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

٣– أنه بذلك حبطتْ أعمالُه؛ قال – تعالى –: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

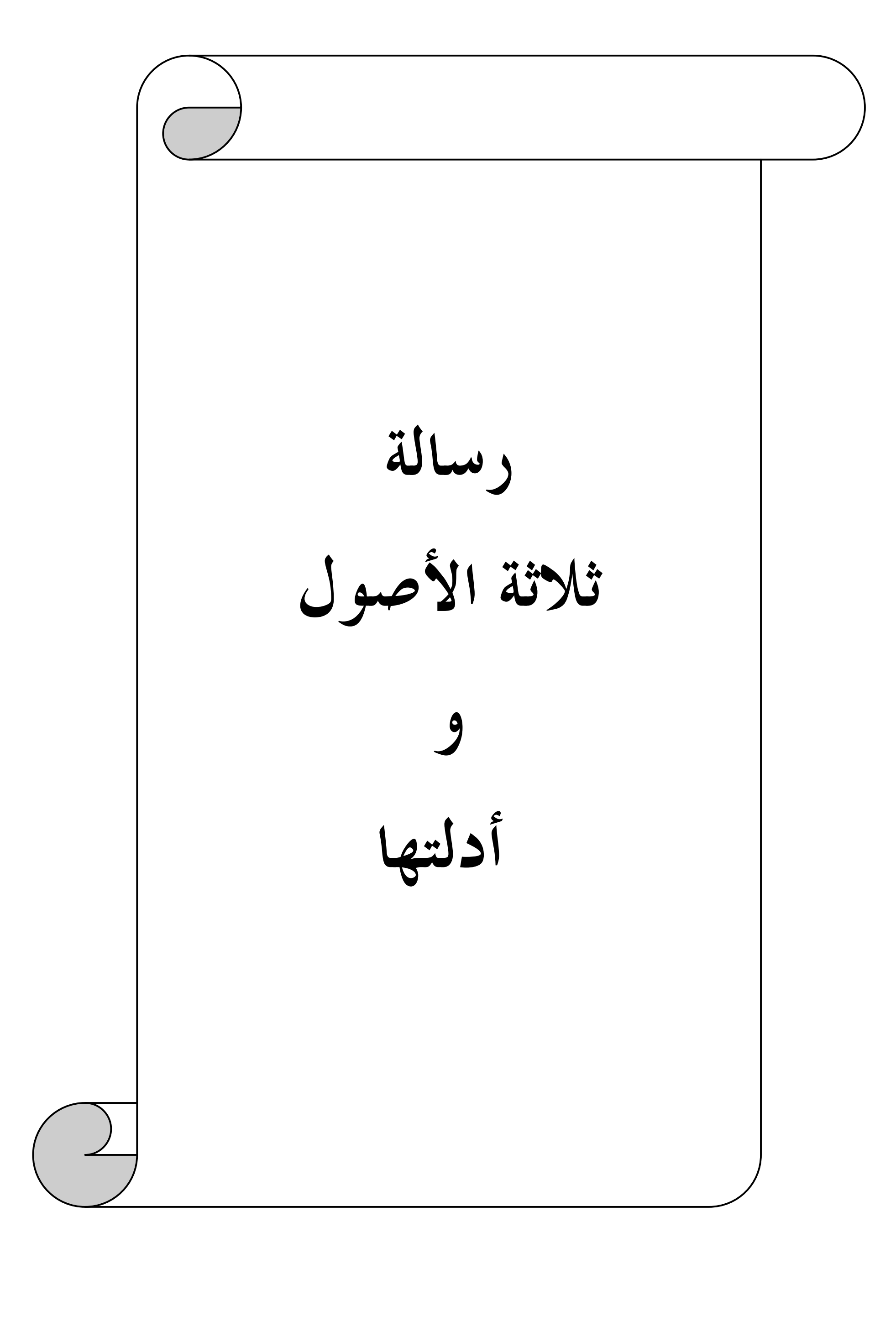
وبناءً على ما تقدم؛ يتبيَّن أنه من أشرك فقد ظَلَمَ نفسه، وأوردها المهالك؛ قال – تعالى –: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

– استدل المؤلف بقوله – تعالى –: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وفي هذه الآية فائدتان:

١– أنها جمعتْ بين الأمر بالعبادة والإخلاص لله – تعالى – بقوله – تعالى –: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، وهذه هي الملة الحنيفية – كما تقدم.

٢– قوله – تعالى –: ﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النهي؛ فهي تفيد العموم؛ أي: ولو كان أي شرك، ولو يسيرًا، ولو شركًا أصغر، فإن الله – تعالى – ينهاكم عن ذلك.


رسالة
ثلاثة الأصول
و
أدلتها

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟
فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

*** الأصل الأول ***

معرفة الرب

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟
فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢]. وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ.
فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟
فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[فصلت: ٣٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف: ٥٤]. وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢١، ٢٢].
قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ ـــ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ.
وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا. كُلُّهَا للهِ تَعَالَى.
وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾[الجن: ١٨]. فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾[المؤمنون: ١١٧].
وَفِي الْحَدِيثِ: (الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ). وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر: ٦٠].
وَدَلِيلُ الْخَوْفِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران: ١٧٥].
وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً

صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾[الكهف: ١١٠].

وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[المائدة: ٢٣]. وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق: ٣].

وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُوعِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾[الأنبياء: ٩٠].

وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي...﴾ الآية [البقرة: ١٥٠].

وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ...﴾ الآية [الزمر: ٥٤].

وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]. وَفِي الْحَدِيثِ: (...وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ).

وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١]. وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [الناس: ١].

وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ...﴾ الآية[الأنفال: ٩].

وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَه وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ــ١٦٣]. وَمِنَ السُنَّةِ: (لعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ). (٢)

وَدَلِيلُ النَّذْرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ [الإنسان: ٧].

*** الأَصْلُ الثَّاني ***

مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ

وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.

المرتبة الأولى: الإسلام

فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا إله إلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ.

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِله إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِله إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[آل عمران، ١٨].

وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ، وَحَدُّ النَّفْيِ مِنْ الإِثْبَاتِ ﴿لا إله﴾ نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿إلا اللهُ﴾ مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ.

وَتَفْسيرُهَا: الَّذي يُوضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِين * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الزخرف: ٢٦ ــ ٢٨]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ٦٤].

وَدِلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ جَآءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة: ١٢٨].

وَمَعْنَى شَهَادَة أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ وأَلا يُعْبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ.

وَدَلِيلُ الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾[البينة: ٥].

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٨٣].

وَدَلِيلُ الْحَجِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[آل عمران: ٩٧].

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ

وَهُوَ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا إله إلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ.

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: كما فى الحديث (أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ).

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[البقرة: ١٧٧].

ودليل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩].

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ

أركانه: وله رُكْنٌ وَاحِدٌ. كما فى الحديث: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ). وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللّـهَ مَعَ الَّـذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّـذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[النحل: ١٢٨]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[الشعراء: ٢١٧ ــ ٢٢٠]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ: عَنْ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ ــ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ــ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ فَقَالَ: (أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إله إلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا). قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ:(أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ). قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ). قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: (مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ). قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: (أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ). قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا، فَقَالَ: (يَا عُمَرُ أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟). قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم).

*الأَصْلُ الثَّالِثُ *

مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، ـــوَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلام، وَلَهُ مِنَ العُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُون فى النبوة. نُبِّئَ ب﴿اقْرَأْ﴾، وَأُرْسِلَ ب﴿الْمُدَّثِّرْ﴾، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ.

بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبِالدَّعْوة إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾[المدثر: ١ــ٧]. وَمَعْنَى: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ. ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾: أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ. ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾: أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ. ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾: الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَواتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَالْهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ.

وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلام، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾[النساء: ٩٧ــ٩٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾[العنكبوت: ٥٦].

قَالَ الْبُغَوِيُّ ـــ رَحِمَهُ اللهُ ـــ:نزلت هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ ولَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ ـــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـــ: (لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا).

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، مِثِلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَتُوُفِّيَ ـــ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ ـــ وَدِينُهُ بَاقٍ.

وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إِلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلا حَذَّرَهَا مِنْهُ، وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ. بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾[الأعراف: ١٥٨].

وَكَمَّلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[المائدة: ٣]. وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ـــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـــ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾[الزمر: ٣٠، ٣١].

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾[طه: ٥٥].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾[نوح: ١٧، ١٨]. وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾[النجم: ٣١].

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[التغابن: ٧].

وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء: ١٦٥].

وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ـــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـــ وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾[النساء: ١٦٥].

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْها رَسُولا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ ـــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـــ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ ــ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ. وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لا إله إلا اللهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: (رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ).

وَاللهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

من هنا بدأ المصنف الكلام عن القسم الثاني ، وهو الكلام عن الأصول الثلاثة ، وهي أصل هذه الرسالة .

خلاصة هذا المقطع : ذكر الأصول الثلاثة مجملة .

بدأ المؤلف الكلام على موضوع هذه الرسالة ، وهو الأصول الثلاثة ، وأجملها هنا ، وسوف يفصلها بأدلتها أثناء الرسالة .

والأصول : جمع أصل ، وهو لغة : أسفل الشيء وأساسه . وهو ما يبنى عليه غيره .

ومنه أصل الجدار وهو أساسه الذي يبنى عليه ، وأصل الشجرة ، وهو جزءها الثابت في الأرض .

قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّـــهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

قوله – رحمه الله – : (فإذا قيل لك : ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها ؟)

صاغ المصنف ــ رحمه الله ــ المادة التي سيقررها شرحاً وتبياناً للأصول الثلاثة على صيغة سؤال وجواب وذلك لعلتين

أما العلة الأولى : فلأن صِيَغ السؤال والجواب في التعليم من أنفع الصيغ وأرسخها تعليماً وتدريساً للمُعلَّمين والمدرَّسين ، ومن ثم تجد المصنف -يرحمه الله- يُعنى بهذا الأسلوب في كثير من رسائله .

وأما العلة الثانية : فلأن هذا الأسلوب فيه إيقاظ للوسنان ، فالسؤال عندما يورد تتطلع الهمم والعقول لمعرفة جوابه ، والسؤال عندما يُلفظ تتطلع الهمم لمعرفة ما بعده ومن ثم كان فيه نوع إيقاظ ، ولذلك أورد المصنف -يرحمه الله- هذه المادة التي يشرحها للأصول الثلاثة على صيغة السؤال والجواب.

قوله — رحمه — (معرفة العبد ربه) يشمل : معرفته بتوحيد الربوبية ، والألوهية ، والأسماء والصفات .

وهذا أعظم مطلب ، يقول ابن تيمية : اللذة ، والفرحة ، والسرور ، وطيب الوقت ، والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه ، إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى ، وتوحيده ، والإيمان به .

وقال ابن القيم : من عرف الله بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله أحبه لا محالة .

قوله – رحمه الله – ودينه) وهي معرفة ما يصحح إسلامه من أمور الدين ، وكلما ازداد من تعلم أمور الدين أجر على ذلك .

قوله – رحمه الله – (ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم) .بمعرفة سيرته إجمالاً ، ومعرفة ما جاء به من الدين ، والتصديق بذلك .

قال المصنف – رحمه الله –

* الأصل الأول *

معرفة الرب

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢]. وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[فصلت: ٣٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف: ٥٤]. وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢١، ٢٢].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ ـــ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ.

- استهلَّ المؤلف هذا الأصلَ كعادته بطريقته البديعة، وهي الاستفهام: "فإذا قيل لك: من ربُّك؟"، وتقدَّم ما لهذه الطريقة من لفتٍ للانتباه، وتحريكٍ للذهن، والسؤال هنا عن الرب، وأصل الرب في اللغة بمعنى المربي، ويتفرع من هذه الكلمة عدة معانٍ، كـــ: (المالك، والمدبِّر، والمتصرف، والمتعهد، والمصلح، والسيد)، كل هذه تدخُل في معنى الرب؛ ولذا قال المؤلف في الجواب: "فقل: ربي الله، الذي رباني وربَّى جميع العالمين"، فربوبيتُه – سبحانه وتعالى – لجميع الخلق، وهي: قيامه – سبحانه – بجميع شؤونهم، وتدبيره لأمر خلْقه، لا غنى لأحدٍ عن فضله؛ بل الخلق كلهم فقراءُ إليه، وهو الغني الحميد، لا يستطيعون الانفكاك عنه، ولا الخلاصَ منه، وربوبيتُه — سبحانه – لا تختص بخلقٍ دون خلق؛ بل هي لجميع العالمين، ربَّاهم – جل وعلا – بنِعَمه، فأغدق عليهم نعمه الكثيرة؛﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

ونِعَمُ الله على نوعين:

١- نعم محسوسة: وهي النِّعم التي تُحسُّ بلمس أو مشاهدة ونحوهما، مثل: نعمة الرزق من أكلٍ وشراب، وغير ذلك مما يُدرك بالحواس.

٢- نعم معنوية: وهي النعم التي لا تدرك بالحواس، فليس لها شاخص يُرى، أو صوت يسمع، ونحو ذلك، مثل: نعمة الإيمان، ونعمة الفهم، وحسن النية، ونحو ذلك.

- قوله: "وهو معبودي، ليس لي معبود سواه":

بعد أن أثبت المؤلف الربوبيةَ العامة لكل مخلوق في هذا العالم، أتبَعَ هذا الأمرَ بحقِّ هذه الربوبية، وهو عبادته - سبحانه - على الوجْه الأكمل، فقال: "وهو معبودي"؛ أي: الذي أتقرَّبُ إليه بالعبادة، وبيَّن أن هذه العبادة لا بد أن تكون خاليةً من الشرك، فقال: "ليس لي معبود سواه"، مع أن لفظ "معبودي" يكفي في إفراد الله - سبحانه وتعالى - بالعبادة؛ لأنها لفظة معرَّفة بالإضافة، وهي مما يفيد الحصر في لغة العرب، إلا أنه أكَّد ذلك بالعبارة الأخرى، فهو المستحق للعبادة - سبحانه وتعالى.

* استدل المؤلف على هذين النوعين من التوحيد - الربوبيةِ والألوهية - بقوله - تعالى -: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وفي هذه الآية شاهدان:

الشاهد الأول: قوله: ﴿لِلَّهِ﴾، ففيه الإثبات بأنه المعبود وحده لا شريك له، ففي هذا إثبات الألوهية، واللام في ﴿لِلَّهِ﴾ لام الاستحقاق، فهو المستحق لذلك - سبحانه - واللام في ﴿الْحَمْدُ﴾ للاستغراق؛ أي: تستغرق جميع الحمد، وأفضلُ تعريف للحمد ما ذَكَره شيخ الإسلام في "مجموع الفتاوى" أن الحمد: هو الإخبار عن صفات المحمود على وجْه المحبة والتعظيم.

فلا بد من أمرين:

١- الإخبار عن صفات المحمود؛ أي: الأخبار التي يُثنى بها عليه.

٢- أن يكون على وجه المحبة والتعظيم.

وهذا هو الفارق بين الحمد والمدح؛ لأنه إذا كان إخبارًا عن صفات المحمود من دون محبة وتعظيم، صار مدحًا؛ لأن الإنسان قد يمدح شخصًا وهو لا يحبُّه.

والشاهد الثاني: قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ففيه إثبات ربوبيته - سبحانه - والربوبيةُ هنا مضافة إلى العالمين، فهي عامة شاملة لكل أحد، سواء كان من العوالم المكلَّفة، وهم: بنو آدم، والجن، والملائكة، هؤلاء كلِّفوا من رب العالمين، فأُمروا

بأشياء، ونُهُوا عن أشياء، أو كان من العوالم غير المكلَّفة، الذين عبادهم تسبيح فطري، لا تكليفي بأمر ونهي؛ قال - تعالى -: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

- "فإن قيل لك: بِمَ عرفتَ ربَّك؟":

وهذا السؤال يراد به الدليل على ما تقدم؛ أي: بأي شيء عرفتَ الله - تعالى؟ فما هي البراهين التي جعلتْك تؤمن بالله الإيمان الذي تقدم بأنه هو الذي رباك وربى جميع العالمين بنعمه، وهو المعبود - سبحانه - ليس هناك معبود بحق سواه؟ فما الدليل على تفرده - سبحانه - بالربوبية والألوهية؟

ذكر المؤلف برهانًا لذلك الآيات والمخلوقات التي نصبها الله - تعالى - دلالةً على وحدانيته وتفرُّده بالربوبية والألوهية، وذكر أمثلة لكل واحدة منهما، واستدل لها:

أولاً: آياته:

والآيات جمع آية، والآية معناها في اللغة: العلامة، فإذا قيل: آية محمد - صلى الله عليه وسلم - نزول القرآن عليه، معناه: أن علامة النبي - صلى الله عليه وسلم - نزول القرآن.

وهنا المؤلف بيَّن أن العباد يعرفون الله - تعالى - بآياته، وهي دلالاته وبراهينه، وهي كثيرة جدًّا، قال الشاعر:

فَوَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَـ= ـهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ = وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ = تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

وآيات الله على نوعين:

١- آيات كونية:

وهي المخلوقات: كالسماء والأرض، والشمس والقمر والنجوم، والنبات والإنسان والحيوان، ونحوها.

٢- آيات شرعية:

وهي الوحي الذي جاءتْ به الرسل، فهي آيات مقروءة، أنزلها الله - تعالى - على رسله؛ قال - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الحديد: ٩]، فالقرآن - وكذلك ما جاء في الإنجيل والتوراة والكتب السماوية من دلائل صحيحة قبل أن تُحرَّف - كل هذا داخل في الآيات الشرعية الدينية.

فهذه الآيات بما فيها من أشياء لا تناقض فيها، وبما جاءت به من مصالح العباد، وبيان طريق سعادهم في دينهم ودنياهم برهانٌ ودليل على الله تعالى.

والمؤلف – رحمه الله – ذكر من آيات الله – سبحانه – التي تدل عليه: الليل والنهار، والشمس والقمر، فهو ذكر آيات شرعية، وكلا النوعين دالاَّن على الله تعالى – كما تقدم – واستدل بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

ووجه دلالة الليل والنهار:

١- بتعاقبهما، فهذا يذهب، ويأتي هذا بعده، وهكذا، بانتظام كامل، وتناسق بديع؛ كما قال – تعالى –: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

٢- اختلافهما في الطول والقصر، وأخْذ أحدهما من الآخر في وقت دون وقت، كالصيف والشتاء، بشكل مرتب لا عشوائية فيه.

ووجه دلالة الشمس والقمر عليه – سبحانه وتعالى –:

١- جريانهما باستمرار منذ أن خلق الله الشمس والقمر، إلى أن يأذن الله – تعالى – بنهاية الكون، فالشمسُ والقمر في سيرٍ دائم لا انقطاع فيه، وفي انتظام بديع يدلُّ على حسن خلق الله – جل وعلا – فالشمس تسير في فلكها في مدة سنة، وهي كل يوم تطلع وتغرب، والقمر يبدو كالخيط، ثم يتزايد نورُه ويتكامل، ثم يتناقص حتى يرجع كالخيط، في تغيُّر مرتب ومنظم.

٢- ما فيهما من المنافع؛ فالشمس في نورها وإشراقها، والقمر في ضيائه؛ قال – تعالى –: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

ولما كان الشمس والقمر أكبرَ الأجرام، ومن أعظم المخلوقات؛ نبَّه الله – تعالى – إلى أنهما عبدانِ مخلوقان من عبيده، تحت قهره وتسخيره؛ فقال – تعالى –: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

ثانيًا: مخلوقاته:

والمخلوقات تدخل تحت الآيات؛ فإن مخلوقاته – سبحانه وتعالى – من آياته – جل وعلا – فيكون كلام المؤلف هنا من باب عطف الخاص على العام على سبيل الاهتمام بالخاص، وذكر للمخلوقات أمثلة، فقال: "ومن مخلوقاته: السموات السبع، والأرَضون السبع، ومن فيهن، وما بينهما".

وتقدَّم أن المخلوقات داخلةٌ في الآيات، ولكن لمزيد اهتمام بها ذَكَرها المؤلف؛ ولأن الإنسان يصبح وهو يرى الأرض والسماء على الدوام، فعينُه أَلِفَتْ ذلك، فأراد المؤلف أن يلفت الانتباه إليهما، وأنهما من الدلائل على الله – تعالى – لأن الإنسان قد يغفل عن كون السماء والأرض كذلك؛ لأن عينه ألفتْ ذلك فلا تتأملها، والله – عز وجل – يقول فيها: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، ويقول: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، واستدل المؤلف بقوله – تعالى –: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ووجه دلالة السموات والأرض على الله – تعالى –: أما السموات السبع، فسعتُها وارتفاعها، ولطافتها واتساعها، وكواكبها التي فيها، وارتفاعها بغير عَمَدٍ من تحتها، ولا علائق من فوقها، وكِبَر خلقها، وغير ذلك عند التأمل.

وأما الأرَضون السبع، فكثافتُها وانخفاضها، وجبالها وبحارها، وقفارها وعراؤها، وما فيها من المنافع وسعة أرجائها.

(ومن فيهن) من أصناف المخلوقات من الحيوانات والنباتات، وسائر الموجودات، وما بين السموات والأرض من الأهوية والسحاب، وغير ذلك مما هو دالٌّ على الله – تعالى.

* الرب هو المعبود:

أي: هو المستحق للعبادة، أو هو الذي يُعبد لاستحقاقه للعبادة، وليس كل من عُبد فهو رب.

واستدل المؤلف بقوله – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، وفي هذا الاستدلال عدة فوائد، ومنها لفتتان:

اللفتة الأولى: أن هذه الآية هي أول أمرٍ في كتاب الله – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا﴾، فأول أمر في كتاب الله – تعالى – هو الأمر بإفراد الله بالعبادة، وأنها سببٌ لحصول الثمرة العظيمة، وهي التقوى.

اللفتة الثانية: أن الله – عز وجل – ذكر في الآية أوصافًا؛ ليبيِّن أن المستحق للعبادة هو الموصوف بهذه الصفات في الآيتين السابقتين، فهو الخالق المدبر الرازق، فكيف تجعلون لله أندادًا وشركاءَ وأنتم تعلمون ذلك؟! فهي أوصاف لا تصلح إلا لإلهٍ يستحق العبادةَ؛ ولذا أنكر الله – تعالى – على من لم يتَّصف بذلك كيف يُعبد؟ فقال – تعالى –: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

ثم ذكر المؤلف قول ابن كثير؛ تأييدًا للمعنى السابق، وتفسيرًا لما استدل به المؤلف، حيث قال: "الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة"، وليس هذا هو كلام ابن كثير نصًّا؛ وإنما لخَّصه المؤلِّف بهذه العبارة التي تؤدِّي نفس المعنى الذي قاله ابن كثير – رحمه الله.

وابن كثير هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الشافعي، المتوفى سنة ٧٧٤ من هجرة النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، وممن استفاد من ابن القيم، وهو من أخص أصدقائه، له تفسير عظيم مشهور، عمدة التفسير اسمه: "تفسير القرآن العظيم".

[أنواع العبادة]

ثم إن المؤلف لما بيَّن وجوب صرف العبادة لله وحده كأن سائلا يسأل عن العبادة ما هي وما المراد بها؟ وما هي أنواعها؟ فذكر هذا بقوله:

(وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل الإسلام والإيمان والإحسان، ومنه الخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والخشوع والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لله تعالى والدليل قوله تعالى:﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾).

والكلام على قول المؤلف هنا على عدة وجوه:

الوجه الأول: تعريف العبادة:

العبادة في اللغة: الذُّل والخضوع، تقول: طريق معبَّد؛ أي: مذلل.

وفي الشرع: لها عدة تعاريف عند العلماء.

- قال العلامة ابن قاسم - رحمه الله -: "وللعلماء فيها تعاريفُ كثيرة، وأحسن وأجمع ما عرفت به هو ما عرفها به شيخُ الإسلام بقوله: "اسم جامع لكل ما يُحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة"، وهو من أشمل ما عرفت به، فكل فرد من أفراد العبادة داخل تحت هذه العبارة".

وذكر المؤلف عِدَّة أنواعٍ من العبادة، وبدأ بذكرِ الإسلام والإيمان والإحسان لأهميتها، ولأنَّ جميعَ أنواع العبادة داخلةٌ فيها، ويدل على ذلك حديثُ جبريل الطويل، وفيه ذكر الإسلام والإيمان والإحسان، وفي آخر الحديث قال النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم))، فأرجع أمور الدين لهذه الثلاثة.

وسيأتي مزيد بيان وكلام عنها في الأصل الثاني بإذن الله، ثم ذكر أنواعًا من العبادة لا جميع أنواع العبادة، ولذلك قال: "ومنه الدُّعاء والخوف والرجاء..."، و(من) للتبعيض؛ أي: بعضها، وقبل ذلك قال: "مثل الإسلام والإيمان والإحسان"، وهذا إشعار منه بأنه أراد التمثيل، وذكر شيءٍ منها لا استيعابها.

الوجه الثاني: أنواع العبادة التي ذكرها المؤلف:

ذكر المؤلف أنواعًا من العبادة وهي "الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل والرغبة، والرهبة، والنذر"، هذه هي العبادة التي ذكرها المؤلف، وهي ترجع إلى ثلاثة أنواع:

- عبادات فعلية كالنذر.
- وعبادات قولية كالدعاء.
- وعبادات قلبية كالخوف، وهي أكثر ما ذُكر.

الوجه الثالث: بيان العبادات بالأدلة:

المؤلف بعدما عدَّد أنواعًا من العبادات أعاد ذكرها بالأدلة، وهي كما يلي:

أولاً: الدعاء ودليله:

والدعاء معناه معروف ، والدعاء نوعان :-

النوع الأول : فدعاء عبادة ، والمقصود بدعاء العبادة كل عمل يعبد الإنسان به ربه هو دعاء ، سمي دعاء لأحد أمرين :

أما الأمر الأول : فلأن هذه الأعمال صُلبها وعمودها الطلب والدعاء ، الذي هو معروف .

وأما الأمر الثاني : فهو أن يقال هذه الأعمال فيها معنى الطلب ؛ لأن الأعمال التعبدية التي يفعلها المرء يقصد من ورائها طلب رضى الله ليدخل جنته ، وينجى من ناره ، فكان فيها معنى الطلب ، فسمي بدعاء العبادة ، فدعاء العبادة يشمل جميع العبادات صغيرها وكبيرها .

وأما النوع الثاني : فدعاء مسألة ، وهو ما كان فيه سؤال ، وما كان فيه سؤال كان فيه طلب باللسان بالقول وما إليه ، فإذا رفع الإنسان يديه يسأل الله بلسانه مطلوباً فقد دعاه دعاء مسألة ، ولا شك أن دعاء المسألة عبادة يقربه إلى الله ، ولكن جرى تقسيم الدعاء إلى هذين النوعين على ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية يرحمه الله ، وجماعه وهو تقسيم عظيم في بابه مفيد لطلابه .

استدل المؤلف على العبادة بعدة أدلة:

١ – قوله – تعالى – :﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ المساجد في الآية لها تفسيران:

الأول: أنَّ المقصودَ بها أماكن السجود، البقاع التي يُصلَّى فيها، والثاني: الأعضاء التي يسجد عليها، وهي الوجه واليدان والركبتان والقدمان، وكلا التفسيرين مُراد، فالبقاعُ لا نعبد فيها أحدًا غير الله – تعالى – ومواضع السجود لا يُسجد بها لغير الله – تعالى – وهذا نَهي عن الشرك، فلا يَجوز صرفها لغير الله – تعالى – وقوله: ﴿أحدًا﴾ نكره في سياق النهي تفيد العموم، فالنهي عن إشراك أيِّ أحد، سواء كان ملكًا أو نبيًّا أو وليًّا، أو شجرًا أو حجرًا، أو غير ذلك.

وهذه الآية يصلح الاستدلالُ بها على عدم جواز صرف أيِّ عبادة لغير الله – تعالى – لأنَّها تتضمن دعاءَ العبادة، ودُعاء المسألة، كما قال المؤلف، ومَن صرف شيئًا من العبادة لغير الله، فهو مشرك، وهذا لا إشكالَ فيه، فلو أشرك في عبادة واحدة، وأخلص في بقية العبادات لله – تعالى – فلن ينفعه ذلك، كمن يدعو غير الله – تعالى – كالأموات والغائبين، أو يرجوهم، أو يخافهم، أو يسألهم قضاءَ الحاجات وتفريجَ الكربات ونحو ذلك، فهو مُشرك الشرك الأكبر؛ لأنَّه أشرك مع الله غيره.

٢ – قوله – تعالى – ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

في الآية أنَّ مَن دعا مع الله إلهًا آخر، فقد نال ثلاثةَ أمور: التهديد والوعيد في قوله - تعالى -: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾، وعدم الفلاح ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ﴾، ووصفه بالكفر في آخر الآية.

فائدة: قوله: ﴿لا برهان له به﴾ ليس معناه أنَّ هناك مَن سيكون له بُرهان، بل هي صفة كاشفة مبيِّنة، فيها إشارة إلى أنه لا يُمكن أن يكون برهانًا على تعدد الآلهة.

٣ - وفي الحديث: ((الدعاء مخ العبادة)).

ومخ الشيء: لُبُّه وخلاصته وما يقوم به، ومعناه أنَّ العبادة لا تقومُ إلا بالدعاء، كما أن الإنسان لا يقوم إلا بالمخ، والحديث ضعيفٌ رواه الترمذي من حديث أنس وقال الترمذي: "إن هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة".

فالحديث فيه ابن لهيعة وهو ممن اختلط، وفيه أيضًا الوليد بن مسلم وهو مدلس وقد عنعن، وضعَّف الحديث المنذري في "الترغيب، ٢/ ٤٨٢".

لكن معنى هذا الحديث صحيح، ويشهد له ما أخرجه الإمام أحمد وأبو داوود والترمذي وابن ماجه، من حديث النعمان بن بشير: أن النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((الدعاء هو العبادة)).

٤ - قوله - تعالى -: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، سمي الدُّعاء هنا عبادة، وهذا فيه تأييد كون الدُّعاء هو العبادة؛ لأنَّ قوله "عبادتي" يرجع على الدُّعاء، والدعاء المأمور به في الآية دعاء العبادة ودعاء المسألة، فإذا كان دعاء عبادة، فإن استجابته - سبحانه - هو الإثابة على هذه العبادة وقَبولها، وإذا كان دعاء مسألة، فإنَّ استجابته — سبحانه - حصول المطلوب، وقد يتأخَّر حصول المطلوب أو لا يَحصل؛ لحكمةٍ أرادها الله - تعالى - قد تخفى على العبد.

ثانيًا: الخوف ودليله:

- تعريفه:

الخوف: هو الذعر، وهو انفعال يحصل بتوقع ما فيه هلاك أو ضرر أو أذى.

- الخوف على ثلاثة أنواع:

الأول: الخوف الطبيعي:

وهو الخوف الذي جُبل عليه الإنسانُ؛ كخوف الإنسان من عدو أو سبع، أو حية أو ضرر أو أذى، فالأصلُ في هذا النوع الإباحة؛ ولذا قال الله - تعالى - عن موسى - عليه السَّلام -: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]، لكن إن

كان هذا الخوف خوفًا من شيء لا يخاف منه عادة، كالخوف الذي ينشأ عن الأوهام وغيره مما كان سببه ضعيفًا، فهو خوف مذموم.

الثاني: خوف السر:

ومنهم من يسميه "خوف العبادة"، وهو الخوف الذي يتقرَّب ويتعبد به الخائف للمَخُوف منه، وذلك بأن يستحضره في الغيب والشهادة وفي السر والعلن، ولذا أسموه خوف السر؛ لأنَّه إذا خافه في السر، فمن باب أولى أنْ يَخافه في العلن، وهذا النوع لا يكون إلا لله – تعالى – وصرفه لغير الله شرك أكبر، كأنْ يَخاف من ولي من الأولياء بعيدًا عنه أن يصيبه بمكروه، أو يَخاف من وثن أو صاحب قبر، وهذا النَّوع هو الواقع بين عباد القبور والمتعلقين بالأولياء؛ قال الله – تعالى – عن قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ﴾ [هود: ٥٤]، فهم يعتقدون أن الآلهة يُخاف منها؛ لأنَّها قد تعتري الإنسان بسوء.

الثالث: الخوف المقعد عن الطاعة أو الحامل على المعصية:

وهذا النوع لا يصلُ إلى حد الشرك، ولكنَّه مَعصية يعاقب عليها الإنسان، كمن حمله الخوف على ترك الجهاد، أو ترك طلب العلم، أو الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ونحو ذلك مما يَجب عليه، أو حمله الخوف فعل أي مَعصية، فهذه أنواع ثلاثة: الأول مباح، والثاني: محمود إن كان لله – تعالى – والثالث مذموم.

- ما استدل به المؤلف:

واستدل المؤلف لهذه العبادة بقوله – تعالى –: ﴿فلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وأول الآية: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وهذا نَهيٌ من الله – تعالى – لعباده ألا يعظِّموا في صدورهم تخويفَ الشيطان لهم، وحثٌّ وأمرٌ لهم بأن يصرفوا هذا له – سبحانه – فقال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فجعله علامة على صحة الإيمان.

ثالثًا: الرجاء ودليله:

- تعريف الرجاء:

الرجاء في الأصل يدل على الأمل الذي هو نقيض اليأس.

وفي الاصطلاح: هو تأمُّل الخير وقرب وقوعه، وله تعريفات أخرى:

قال ابنُ القيم: الرجاء: هو النظر إلى سعة رحمة الله.

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب – تبارك وتعالى – والارتياح لمطالعة كرمه.

وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى.

- **الرجاء نوعان:**

١ - رجاء محمود: وهو الرجاء الذي يصاحبه عمل، وكما استدل المؤلف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، فالرجاء المحمود هو رجاء يكون معه عمل بطاعة الله - تعالى - رجاء ثوابه، وكذا رجاء رجل أذنب ذنوبًا ثم تاب منها صادقًا، رجاء مغفرة ربه وعفوه وإحسانه.

٢ - رجاء مذموم: وهو الرجاء الذي يُصاحبه كسل، وهذا هو التمني والغرور، فهو رجاء رجل مُعتاد على التفريط والخطايا، ويرجو رحمةَ ربِّه بلا عمل، فهذا غرور وتَمنٍّ ورجاء كاذب، فالأول يسمى رجاء، والثاني يسمى تمنِّيًا.

- ما استدل به المؤلف:

استدل المؤلف بقوله - تعالى -: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

- ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ﴾، اللقاء يومَ القيامة على نوعين:

١ - لقاء خاص: وهذا لا يكون إلا للمؤمنين، وهو لقاء الرضا والنعيم من الله - سبحانه وتعالى.

٢ - لقاء عام: وهذا لجميع الناس؛ قال الله - تعالى - عنه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ [الانشقاق: ٦ - ١١]، وأمَّا الآية التي استدل بها المؤلف، فالمقصود به لقاء النعيم والرضا، وأن من أراده، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وفي الآية التحذير من الشرك، فلا يُشرك في العبادة مع الله أحدًا، لا ملكًا مُقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسلاً، ولا أحدًا كائنًا من كان.

رابعًا: التوكل ودليله:

- **تعريف التوكل:**

التوكل في الأصل هو الاعتماد.

وفي الاصطلاح: هو صدق الاعتماد على الله - عزَّ وجلَّ - في جلب المحبوب، ودفع المكروه مع فعل الأسباب المأذون فيها، فلا بُدَّ للتوكل من اعتقاد واعتماد وعمل.

فالاعتقاد أنْ يعلم أن الأمر كله لله — تعالى - ويعتمد بقلبه على ربه - جل وعلا - ويثق به ثقة كاملة، ويعمل الأسباب المأذون فيها شرعًا.

- **التوكل وفعل الأسباب:**

بيان ذلك من عدة أمور:

أولاً: لا بُدَّ من فعل السبب مع التوكُّل، وفعل السبب لا يقدح في التوكل، فالنبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - أعظمُ المتوكلين، وكان يأخذ بالأسباب يأخذُ زاده في السَّفر، ويلبس درعه في الحرب، ويستأجر من يدُلُّه على الطريق في غزواته ونحو ذلك.

ثانيًا: ادِّعاء التوكل بالاعتماد على الله من دون فعل الأسباب طعنٌ في حكمة الله - تعالى - لأنَّ الله جعل لكل شيء سببًا، فادَّعاء ذلك لا يسمى توكلاً بل تواكلاً.

ثالثًا: الاعتماد على الأسباب وحْدَها دون الالتفات إلى الله - تعالى - نوعٌ من أنواع الشرك بالأسباب.

رابعًا: جَعْلُ أكثرِ الاعتماد على الأسباب نقصٌ في التوكُّل على الله - تعالى - لأنه قدح في كفاية الله تعالى.

- **التوكل على الغير له أنواع:**

الأول: التوكُّل على الغير فيما لا يقدر عليه إلا الله - تعالى - من جلب المنافع ودفع المضار، فهذا شرك أكبر، كأنْ يعتمد على ميت في جلب منفعة أو دفع مَضرة، وهذا يسمى "توكُّلَ السر"، وهو شرك أكبر؛ لأنه يعتقد أنَّ لهذا الميت تصرفًا سريًّا في الكون.

الثاني: التوكُّل على الغير من الأحياء فيما يقدر عليه مع الشعور بعلو مَرتبته، فهذا شرك أصغر؛ بسبب قوة تعلُّق القلب بهذا الإنسان، واعتماده عليه مع إغفاله أنَّه سببٌ من الأسباب وأنَّ الله - عزَّ وجلَّ - أجرى على يديه هذه النِّعم، كمن يعتمد على ملك أو وزير أو مسؤول، أمَّا إذا اعتقد الإنسانُ أن هذا سبب، وأنَّ الله - تعالى - أقدره على هذه النعم وأجراها على يديه، فحينئذ لا بأسَ بهذا.

الثالث: التوكُّل على الغير في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه، فهذا لا بأس به، كأن يقول وكَّلت فلانًا بكذا، وقد دَلَّ على جواز ذلك الكتابُ والسنة والإجماع، فقد قال تعالى عن يعقوب لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، ووكل النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - أبا هريرة - رضي الله عنه - على الصدقة؛ كما في صحيح البخاري، ووكل النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - عليًّا - رضي الله عنه - في ذبح بقية بُدنهِ، يذبُحها في حَجَّة الوداع؛ كما في "صحيح مسلم".

- ما استدل به المؤلف:

قوله - تعالى -: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ جار ومجرور متقدم، والأصل: "توكلوا على الله"، ومن صور الحصر عند البلاغيين تقديمُ ما حَقُّه التأخير؛ أي: على الله توكَّلوا لا على غيره.

قوله: ﴿فَتَوَكَّلُوا﴾ يقتضي الوجوب، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، قال ابن القيم: "فجعل التوكل على الله شرطًا في الإيمان، فدَلَّ على انتفاء الإيمان عند انتفائه، فمن لا توكُّلَ له لا إيمان له" .

- الآية الأخرى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]؛ أي: إنَّ الله كافيه، وهذا الجزاء لم يأتِ في عبادة من العبادات غير التوكل، وساق المؤلِّف آيتين، ومن عادته ألاَّ يسوق إلا آية واحدة في العبادة؛ ليُبيِّن في الآية الأولى الدليل على وجوب التوكل "فَتَوَكَّلُوا"، وفي الثانية على ثواب وجزاء التوكل "فَهُوَ حَسْبُهُ".

خامسًا: الرغبة والرهبة والخشوع ودليلها:

- **الرغبة:** محبة الوصول إلى الشيء المحبوب.

- **الرهبة:** الخوف المثمر للهرب من المخُوف، فهي خوف مقرون بعمل.

- **الخشوع:** الذل والتطامن لعظمة الله؛ بحيث يستسلم لقضائه الكوني والشرعي.

فالرغبة فيها صدق الرَّجاء، والرهبة عكسها فيها صدق الخوف، والخشوع هو الذل لله - تعالى - وهو ركن لا تستقيم العبادة إلا به.

واستدل المؤلف لهذه العبادات الثلاث بما أثنى الله به على نبي الله زكريا - عليه السَّلام - وأهل بيته، فقال فيهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

سادسًا: الخشية:

- **تعريفها:**

الخشية نوع من الخوف، ولكنَّها أخص من الخوف، فهي الخوف مع التعظيم، فهي خوف مع علم بعظمة من يَخشاه، بخلاف الخوف فقد يكون مع عدم التعظيم، كأن يكون الخائف ضعيفًا حتى مع كون المخوف لا يستحقُّ الخوف منه.

- **الفرق بين الخوف والخشية:**

قال الفيروزآبادي: الخشية أخصُّ من الخوف، فإنَّ الخشية للعلماء بالله - تعالى - فهي خوف مقرون بمعرفة؛ قال النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((إنِّي أتقاكم لله وأشدكم له خشية))، فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون، فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والوجل للمقربين، وعلى قدر العلم والمعرفة تكون الخشية؛ قال - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((لو تعلمون ما أعلم، لضَحِكْتُم قليلاً، ولبَكَيْتُم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنِّساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات، تجأرون إلى الله تعالى))، فصاحب الخوف يلتجئُ إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجئُ إلى الاعتصام بالعلم، ومثلهما كمثل من لا علمَ له بالطب، ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجئُ إلى الحمية والهرب، والطبيب يلتجئُ إلى معرفته بالأدوية والأدواء، وكلُّ واحد إذا خِفْتَه هَرَبْتَ منه، إلاَّ الله، فإنَّك إذا خِفْتَه هربتَ إليه، فالخائف هاربٌ من ربِّه إلى ربه.

- ما استدل به المؤلف.

قوله - تعالى - ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]، وفي هذه الآية النَّهي عن خشية غير الله، وكذلك عن خشية غير الله كخشية الله، فمن خشي غير الله - جل وعلا - كخشية الله، فقد أشرك شركًا يُخرجه من الملة.

سابعًا: الإنابة ودليلها:

- تعريفها:

الإنابة في اللغة: الرجوع، أناب إلى كذا؛ أي: رجع إليه.

وفي الشرع: هي التوبة مع رجوع إلى حال أحسن، فيعكف القلب على طاعة الله ومَحبته والإقبال عليه.

- ومن الفروق بينها وبين التوبة:

أنَّ الإنابة تزيد على التوبة بالرجوع على حال أفضل قبل الذَّنب والمعصية، فمن تاب وازداد من الصالحات، فهذا مُنيب، ومن تاب و لم يَزْدَدْ من الصالحات، فهذا تائب، وليس منيبًا، فالإنابة توبة مع إقبال.

- ما استدل به المؤلف:

قول الله - تعالى -: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤]، في الآية عدة أمور:

١ - الأمر بالإنابة لله — تعالى - فلا بد من إفراد هذه العبادة لله.

٢ - قوله: ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ هو الإسلام الشرعي، وهو الاستسلام لأحكام الله الشرعية.

٣ - في الآية دليلٌ عام على أنَّ الإنابة لا تكون إلا لله — تعالى - وهناك دليل خاص، وهو قول الله - تعالى - عن شعيب في معرض الثناء عليه: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، فقوله: ﴿إِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ تقدَّم الجار والمجرور، فالأصلُ "أنيب إليه"، والتقدُّم معناه أنَّ الجار والمجرور إذا تقدَّم، فإنه يفيد الحصر، وهذا أسلوب معروف عند البلاغيِّين.

ثامنًا: الاستعانة ودليلُها:

- تعريفها:

الاستعانة: هي طَلَبُ العون، وطلب العون من الله يكون في أمرٍ ديني، وكذلك دُنيوي والاستعانة بالله هي الاستعانة المتضمنة كمالَ الذُّلِّ من العبد لربه مع الثِّقة والاعتماد عليه.

- الاستعانة بالمخلوق على نوعين:

١ - استعانة شركية: مخرجة من الملة، وهي الاستعانة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله - تعالى - كأن يستعين بمخلوق؛ ليطلعَه على الغيب، وكمن يذهب إلى ساحر؛ ليطلعه على الغيب، فيصدقه ويؤمن بما قال، أو يستعين بالأموات على ذلك، فهذا قد صرف نوعًا من العبادة لغير الله، ووقع في الشرك الأكبر.

٢ - **استعانة غير شركية**: وهي الاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه، وهي على أنواع، فتارة تكون مُباحة، كأنْ يطلب من مَخلوق أنْ يعينه في حمل متاعه، فهي مباحة له، والمعين قد يثاب على ذلك بإحسانه على أخيه وإعانته له، وتارة تكون مشروعة، كالتعاوُن على أعمال الخير، كالتعاون على نشر الكتاب الشرعي، وتفطير الصائمين، وهذه يُثاب فيها المستعين والمعين؛ قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]، وتارة تكون مُحرمة، وذلك إذا كان التعاوُن على الإثم، كالتعاون على السرقة مثلاً، وهذه يأثَم فيها المستعينُ والمعين؛ قال تعالى: ﴿وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

- ما استدل به المؤلف:

قوله - تعالى -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، في الآية عدة أمور:

١ - ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تقدَّم الضمير المنفصل "إياك"، وهو في محل نصب مفعول به، والأصل "نعبد إياك"، وتقديم المفعول يفيد الحصر، وكذلك الاختصاص؛ مِمَّا يدل على أن العبادات من خصوصِيَّات الله تعالى؛ أي: لا نعبد إلا أنت.

٢ - ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، يقال فيها ما قيل في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فالتقديم يفيد الحصر، فلا يستعان على وجه التعبد إلا له سبحانه.

٣ - قوله - تعالى -: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يَشمل كلَّ عبادة بما فيها الاستعانة، وذَكَرَ الاستعانة بعد العبادة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ لاحتياج العبد في جميعِ عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى.

٤ - ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيها إثبات توحيد الإلوهية، و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيها إثبات توحيد الربوبية؛ لأنَّه إنَّما يستعان بالخالق الرازق المدبر الذي بيده كل شيء، وقدَّم الله - تعالى - حقه وهو العبادة، على حق عبده وهو الاستعانة، فالحقُّ الأول فيه التبرُّؤ من الشرك، والثاني فيه التبرؤ من الحول والقوة.

- حديث: ((إذا استعنت فاستعن بالله)): استدل به المؤلف، وهو جزء من حديث عظيم رواه ابنُ عباس؛ أخرجه أحمد في مُسنده والترمذي في سننه، وفي الحديث أَمَرَ العبدَ إن أرادَ إعانةً أن يتوجَّه إلى الله - تعالى - بطلب العون.

- تاسعًا: الاستعاذة ودليلها:

- تعريفها:

الاستعاذة: طلب الإعاذة، وهي الاعتصامُ والالتجاء إلى من تعتقد أنَّه يُعيذك ويُلجئك، وإذا استعاذ العبد، فليستعذ بالله، والاستعاذة بالله التي لا تكون إلا له هي: الاستعاذة التي تتضمن كمالَ الافتقار إليه والاعتصام به، واعتقاد كفايته في كل شيء.

- الاستعاذة كما تكون بالله - تعالى - تكون بصفاته أيضًا:

كالاستعاذة بكلامه وبعظمته وبعِزَّته، وقدرته وبرضاه وبوجهه؛ ففي صحيح مسلم من حديث خولة مرفوعًا: ((أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق))، وفي سنن أبي داود من حديث ابن عمر مرفوعًا: ((أعوذ بعظمتك أنْ أُغْتَالَ من

تحتي))، وفي "صحيح مسلم" من حديث عثمان بن أبي العاص مرفوعًا: ((أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر))، وفي صحيحه من حديث عائشة مرفوعًا: ((أعوذ برضاك من سخطك))، وفي "صحيح البخاري" من حديث جابر حين نزل قوله – تعالى –: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((أعوذ بوجهك)).

– الاستعاذة بالمخلوق على نوعين:

١ – استعاذة شركية: وهي الاستعاذة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله – تعالى – كمن يستعيذُ بالأموات أو بالأحياء غير الحاضرين، أو يستعيذ بوَثَن.

٢ – استعاذة غير شركية: وهي الاستعاذة بالمخلوق فيما يقدر عليه، كمن يهرب من عدو، ويلجأ إلى شخص؛ ليُعيذه ونحو ذلك، وهي بحسبها تارة تكون جائزة، وتارة مُحرمة، وتارة مشروعة، كما تقدم في الاستعانة بحسب الشيء المستفاد منه.

– ما استدل به المؤلف:

قوله – تعالى –: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، وفي الآيتين عدة أمور منها:

١ – ﴿الْفَلَقِ﴾: هو الصبح، وربُّ الفلق هو الله – جل وعلا – قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]؛ أي: مظهر النور ومزيل الظلام، ولا يقدر على هذا إلا الله – تعالى – فأمر الله نبيه بأنْ يستعيذَ به، والأمر له أمر لأمته، والمعنى: أنَّ القادر على أنْ يزيلَ هذه الظلمة من العالم قادرٌ على أنْ يُعيذ المخلوق من كل شيء يَخافه.

٢ – "رب الناس"؛ أي: خالقهم ومصلح شؤونهم وأحوالهم، ومن كان كذلك، فهو الذي يُعيذ العبد من كلِّ شيء، ويطلب الالتجاء منه.

٣ – في السورتين فضائلُ عديدة، منها ما جاء في "صحيح مسلم" من حديث عقبة بن عامر، قال رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((ألم تر آيات أنزلت الليلة لم يُرَ مثلهن قطُّ؟ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾)).

عاشرًا: الاستغاثة ودليلها:

– تعريفها:

الاستغاثة: طلبُ الغَوث، وهي أنْ تطلب الغوثَ ممن يستطيعُ إنقاذك من الشدة والهلاك، والاستغاثة بالله – تعالى – تتضمن كمالَ الافتقار إليه – سبحانه – واعتقاد كفايته في كل شيء، وهي بهذا التعريف لا تكون إلا لله تعالى.

– الفرق بين الاستغاثة والاستعانة:

أنَّ الاستعاذة تطلب منه أنْ يعصمَك، وأن يَحوطَك ويُحصِّنَك، والاستغاثة تطلب منه أن يزيل ما فيك من شِدَّة.

- **الاستغاثة بالمخلوق على نوعين:**

١ - استغاثة شركية: وهي الاستغاثةُ بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله - تعالى - كالاستغاثة بالأموات أو بالأحياء غير الحاضرين وغير القادرين على الإغاثة أو الاستغاثة بالجن، فهذا كله شرك.

٢ - استغاثة غير شركية: وهي الاستغاثةُ بالمخلوق فيما يقدر عليه، فهذه جائزة، كمن يستغيث بصاحبه في الحرب ونحوه، وكما قال الله - تعالى - في قصة موسى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، ونقول في الاستغاثة هنا كما قلنا في الاستغانة والاستعاذة، فإنَّها تكون مُباحة ومحرمة ومشروعة بحسب ما استغيث فيه.

- ما استدل به المؤلف:

قوله - تعالى -: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، وهذه الآية نزلت لما كان يوم بدر، ونَظَرَ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - إلى أصحابه، فإذا هم ثلاثمائة ونَيِّف، ونظر إلى المشركين وهم ثلاثة أضعاف، استقبل القبلةَ ودعا ربَّه - جلَّ وعلا - فأنزل الله - تعالى - ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: تستجيرون ربَّكم، وتطلبون منه الغَوْثَ، فاستجاب لكم، وهذا استدلال من المؤلف على هذه العبادة.

الحادي عشر: الذبح ودليله:

- تعريفه:

الذَّبح: هو إزهاق الروح بإراقة الدم على وجه مَخصوص، والذبح حين يكون عبادة لا بُدَّ أن يكون لله تعالى.

- الذبح على أنواع:

الأول: يقع عبادة، بأن يقصد الذابح تعظيمَ المذبوح له، والتذلُّل له والتقرُّب إليه، فهذا لا يكون إلا لله — تعالى - وصرفه لغير الله شرك أكبر، كمن يذبحُ للجنِّ من أجل السَّلامة من شرهم، أو شفاء المرضى، كما يفعله الكهان والمنجمون الذي يدعون العلاج، ويقولون للشاكي إليهم: اذبَحوا شاة أو نحو ذلك لأجل شفاء مريضكم، ولا تذكروا اسمَ الله عليه، فهذا شرك أكبر مُخرج من الملة، ومثله من يذبح لأصحاب القُبور كمن يذبح للسيد البدوي ونحو ذلك، أو كمن يذبح لعلي أو للحسين باسم الحسين أو للنبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - أو لجبريل كل ذلك شرك أكبر.

الثاني: أنْ يقعَ الذبح إكرامًا للضيف أو لوليمة العرس، فهذا مأمور به في الشرع، إمَّا وجوبًا أو استحبابًا؛ لقولِ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه))؛ مُتفق عليه من حديث أبي هريرة، ولقول النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - لعبدالرحمن بن عوف: ((أَوْلِم ولو بشاة))؛ متفق عليه من حديث أنس.

الثالث: أنْ يقعَ الذَّبح للتمتُّع بأكله أو الاتِّجار به، فالأصلُ في هذا الإباحة؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٢].

فهذه هي الأنواع الثلاثة، فالأول شرك، والثاني مشروع، والثالث مباح.

- ما استدل به المؤلف:

• قوله - تعالى -: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

في الآية عدة أمور:

١ - قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي﴾ الصلاة: قيل: المرادُ بها الدُّعاء، وقيل: المرادُ هنا الصلاة المعروفة المفتتحة بالتكبير والمختتمة بالتسليم، فالصلاةُ لله - تعالى - واللام في قوله: "لله" لام الاستحقاق؛ أي: صلاتي مستحقة لله.

٢ - قوله: "وَنُسُكِي"، النسك: قيل: هو ما يتقرب به إلى الله - عزَّ وجلَّ - من الذبائح والقرابين، وهذا مَوطن الشاهد من إيراد المؤلف لهذه الآية، وقيل: المقصود به المناسك، وهو كل ما يُتعبد لله - تعالى - به، فيدخل فيه الذَّبح وغيره، والمقصود أنْ يكونَ النسك وهو التعبد بالذبح يكون لله - تعالى - هو المستحق للتعبد بذلك.

٣ - قوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾؛ أي: إنَّ عمل حياتي وموتي كلٌّ منهما مُستحقٌّ لله رب العالمين، وتَقَدَّم أنَّ اللام في "لله" للاستحقاق.

٤ - ﴿لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾ فيه بيانُ انفراد الله - تعالى - بذلك لا شريكَ بذلك معه مخلصًا له ذلك.

٥ - ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾؛ أي: إنَّ هذا الإفراد والإخلاص هو ما أمرت به من الله - جل وعلا - ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: أول المبادرين المستجيبين لهذا الأمر؛ ليكونَ قدوةً لأمته بهذا التوحيد والإخلاص.

• قال المؤلف: "ومن السنة: ((لَعَن اللهُ مَن ذبح لغير الله))، نقول في الحديث عِدَّة أمور منها:

١ - أنَّ الحديث جزء من حديث علي - رضي الله عنه - قال: حَدَّثني رسولُ الله بأربع كلمات: ((لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى مُحدثًا، لعن الله من غيَّر منار الأرض))؛ رواه مسلم.

٢ - اللعن: هو الطَّرد والإبعاد من رحمة الله - تعالى - وقوله: ((لعن الله من ذبح لغير الله)) يَحتمل أن يكون اللعن هنا خبرًا، فيكون المعنى أنَّ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - يُخبرنا بأن الله لعن من ذَبَحَ لغير الله، ويَحتمل أن يكونَ اللعن هنا إنشاءً، فيكون المعنى الدُّعاء؛ أي: إنَّ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - يدعو على من ذبح لغير الله بأن يطرده الله من رحمته.

الثاني عشر: النذر ودليله:

- تعريفه:

النذر في اللغة: هو الإيجاب، يقال: نذرت دَمَ فلان؛ أي: أوجبته.

وفي الشرع: هو إلزامُ المكلَّف المختار نفسَه شيئًا ممكنًا بأيِّ صيغة كانت، كأن يقول: لله عليَّ صومُ كذا إنْ فعلتُ كذا، أو لم أفعل كذا، ونحو ذلك.
والنذر لا بُدَّ أن يكونَ لله – تعالى – فيقول: لله عليَّ كذا إن فعلت كذا، وصرفه لغير الله شرك.

– حكم النذر:

– الأصل في النذر أنَّه مكروه، وبه قال جمهورُ العلماء؛ لأنَّ النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – قال: ((إنه لا يأتي بخير، وإنَّما يستخرج به من البخيل))؛ مُتفق عليه، لكن إذا نذر الإنسان وجب عليه الإيفاء بنذره، ومنهم من فَرَّق بين النذر المطلق والمقيد، وقال الأول مَحمود، والثاني مكروه، والمطلق ما لم يكن عن مُقابلة، كأنْ يقول: لله عليَّ نذرٌ أنْ أصلي كذا أو أصوم كذا، من دون مقابلة، والمقيد: ما كان عن مُقابلة كأنْ يقول: إنْ شَفَى اللهُ مريضي، فلله عليَّ أن أصلي كذا أو أصوم كذا، فهذا هو المكروه؛ لأنَّ المؤمن إذا أراد عبادةَ ربِّه، فإنَّه لا يعبده بمقايضة، كشفاء مريض ونحوه، بل يعبد الله من دون مقابلة، وكلا النوعين يَجب الوفاء بهما، وللنذر أحكامٌ بسطها يكون في كتب الفقه.

– ما استدل به المؤلف:

قوله – تعالى –: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، في الآية امتدح اللهُ المؤمنين بالنذر، وكل أمر مدحه الله – تعالى – فهو عبادة، وعليه فصرفه لغير الله شرك أكبر مُخرج من الملة، ولو كان المنذور به شيئًا يسيرًا، فالشرك الأكبر قليله وكثيره سواء، كله يُخرج من الملة، وبهذا انتهى ما ذكره المؤلف من أنواع العبادة.

فائدة: ما تقدَّم ذكره من أنواع العبادة التي ذكرها المؤلِّف، مَن صَرَفَ شيئًا منها لغير الله، فقد أشرك شركًا يُخرجه من الملة، هذا هو الحكم المطلق على مَن صرف شيئًا من العبادة لغير الله، وأمَّا الحكم العيني، فلا بُدَّ من انتفاء الموانع، وتَحقُّق الشروط، فيقال: لا بُدَّ من التفريق بين حكمين:

١ – حكم مُطلق، فيقال: كلُّ مَن نذر لغير الله أو ذبح لغير الله، فهو مشرك شركًا يُخرجه من الملة.

٢ – حكم مُعين فيما لو وقع شخص، فصرفَ شيئًا من أنواع العبادة لغير الله، فلا يقال مباشرة: أنت خرجت من الملة، حتى نتحقَّق من انتفاء الموانع عنه، فنتحقق من عدم جهله، وكذا نتحقق من كونه مكلفًا ومُختارًا غير مكره، ومن الموانع التأويلُ في بعض الأمور التي يسوغ فيها اعتبار التأويل، وبسط الكلام عن موانع التكفير وشروطه يأتي في غير هذا الموضع بإذن الله.

الأصل الثانى

قال المصنف ــ يرحمه الله ــ : (الأصـــل الثـــاني : معرفة دين الإسلام بالأدلة، وهو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والخلوص من الشرك .

وهو ثلاث مراتب : (الإسلام) و (الإيمان) و (الإحسان) ، وكل مرتبة لها أركان . فأركان الإسلام خمسة ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام).

فدليل الشهادة قوله تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) ، ومعناها لا معبود بحق إلا الله وحـــده ، و(لا إله) نافياً جميع ما يعبد من دون الله ، (إلا الله) مثبتاً العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته كما أنه ليس له شريك في ملكه .

وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى : [وإذ قال إبراهيم لأبيه إنني برآءٌ مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ، وجعلها كلمةٌ باقية في عقبه لعلهم يرجعون] ، وقوله تعالى : [قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون] .

ودليل شهادة أن محمداً رسول الله قوله تعالى : [لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم] . ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله : طاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما عنه نهى وزجر ، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع .

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى : [وما أُ مروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاءَ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة]

ودليل الصيام قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون] .

ودليل الحج قوله تعالى : [ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين] .

لما فرغ المؤلف من بيان الأصل الأول وهو معرفة العبد ربه وما يجب له وطريقة معرفته وحَقَّقَهُ تحقيقاً بديعاً بكلام واضح وأدلةٍ شافية كافية، انتقل للأصل الثاني وهو معرفة دين الإسلام الذي بُعث به محمد صلى الله عليه وسلم وخُتمت به الشرائع فبَيَّنَ تعريفَه ومراتبَه الثلاث وأركانَ كل مرتبة ودليل هذه المراتب من الكتاب والسنة،وأشار إلى أن معرفة هذه

الأمور لا بد وأن تكون مقرونة بالأدلة من الكتاب والسنة ليكون العبد على بصيرة من دينه؛ لأن هذا من أسباب الثبات في الدنيا أمام الشبهات المضللة الزائغة، والثبات في القبر عند سؤال الملكين عن دينه نسأل الله أن يثبتنا على الدين.

(وهو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله)

* حقيقة دين الإسلام وأصله مبني على أمور ثلاثة وهي ما ذكره المؤلف وهي:

الأول: الاستسلام لله بالتوحيد.

فتكون عبادته لله وحده دون من سواه﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام:١٦٢:١٦٣)

الثاني: الانقياد له بالطاعة.

وذلك بطاعته في أوامره واجتناب ما حرَّم ونهى عنه، ويترك المنازعة فيما شرعه بل يسلم لأمره وينقاد له﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾(الأحزاب:٣٦)، فالطاعة في المأمور بالفعل كالصلوات والصيام والزكاة ونحوها، والطاعة في المحظور بتركه والابتعاد عنه كالربا والسرقة والزنا ونحوها.

الثالث: البراءة من الشرك وأهله.

فلا يتم دين الإنسان إلا إذا تبرأ من المشركين ومن شركهم ولا يشاركهم في قول أو فعل أو اعتقاد، ولا يتشبه بهم في أمورهم، وهذا هو الولاء والبراء كما تقدم تقريره كما قال سبحانه﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ..﴾(الممتحنة: من الآية ٤)، وفي الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:"من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله".

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: فقد دل هذا الحديث على أنه لا يحرم دمه وماله بمجرد الشهادة والتلفظ بها حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون لله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها، ويا له من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع. أ.هـــ.

فهذه أمور ثلاثة لابد من الإتيان بها ليتم إسلام العبد، والمسلمون يتفاوتون بقدر تفاوتهم في تحقيقها فكلما كان العبد أعظم تحقيقاً لها كان إسلامه أتم وينقص إسلامه بقدر تفريطه في بعضها، وبَيْن أعلاها وأدناها درجاتٍ كثيرة.

(وهو ثلاث مراتب الإسلام والإيمان والإحسان وكل مرتبة لها أركان)

هذه مراتب الدين المذكورة في حديث جبريل عليه السلام، وكل مرتبة لها أركان يجب الإتيان بها، فمن أخل بواحد من أركانها لم يأت بها.

والإسلام أحد مراتب الدين، وقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم بأعمال الجوارح الظاهرة. الصلاة والصيام والزكاة والحج.

والإيمان أحد مراتب الدين أيضاً وقد فسره بالاعتقادات الباطنة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

فإذا أطلق أحدهما وحده دخل فيه الآخر، أي: يدخل فيه الأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا اجتمعا في موضع واحد انصرف الإسلام للأعمال الظاهرة والإيمان للأعمال الباطنة كما في قوله تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾(الحجرات: من الآية١٤).

(فأركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام)

فالإسلام له أركان خمسة لا يتم إلا بها جميعاً كما دل له حديث ابن عمر رضى الله عنه المتفق عليه" بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله و إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت".

هذا دليل الأركان الخمسة ثم بَيَّنَ كل واحد من الأركان على حِدَة مع ذكر دليله.

ثم ذكر المؤلف أدلة كل ركن فقال:

(فدليل الشهادة قوله تعالى﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فمعناها: لا معبود بحق إلا الله، لا إله نافياً جميع ما يعبد من دون الله، إلا الله: مثبتاً العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه)

هذه الآية دليل على هذه الشهادة وعظمتها حيث وضحَّت أن الله أعظم شاهد، وأن ملائكته وأهل العلم كلهم شهدوا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وكفى بالله شهيداً.

ومعناها: لا معبودَ بحقٍ إلا الله. أي لا إله حق في الوجود إلا الله، وكل ما يُعبَد من دونه فهو باطل وضلال كما قال سبحانه﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ..﴾(لقمان:٣٠)، وقال﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٢٥)

وكلمة التوحيد ' لا إله إلا الله ' اشتملت على أمرين هما: النفي والإثبات.

فـــ"لا إله": نفي لكل ما يُعبد من دون الله.

و"إلا الله": أثبت العبادة لله وحده فهو المتفرد بالألوهية والملك والتدبير، فكما أن الله هو المتفرد بتوحيد الربوبية بالخلق والملك والتدبير والإحياء والإماتة والنفع والضر، فهو متفرد بتوحيد الألوهية سبحانه وتعالى.

(وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وقوله﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾)

ذكر المؤلف بعض الآيات التي تفسر معنى لا إله إلا الله فإنها ليست مجرد كلمة تقال في اللسان من غير اعتقاد لمعناها وعمل بمقتضاها، بل لا يتم الإتيان بها إلا أن يعتقد معناها وينطق بها ويعمل بمقتضاها، ومن أهم ما يفسرها ما ذكره المؤلف في الآيتين وهو:

١/ أن يفرد الله بالعبادة ويصرفها كلها لله وحده كما قال تعالى﴿.. أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ..﴾(آل عمران: من الآية٦٤).

٢/ أن لا يصرف من العبادة لغيره شيء ولا مثقال ذرة ﴿.. وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً...﴾(آل عمران: من الآية٦٤).

٣/ البراءة والكفر من كل شيء يُعبد من دون الله كما في قوله تعالى﴿..إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي..﴾(الزخرف: من الآية٢٦:٢٧).

٤/ عدم الغلو في أحد من الخلق ورفعه فوق منزلته التي بَيَّنها الله، وأن لا يُعطى شيئاً من حقوق الله مهما عظُم قدره كما قال تعالى ﴿..وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾(آل عمران: من الآية٦٤).

فهذه أمور لا بد منها ليصح الإتيان بكلمة الإخلاص وقد تقدم شرحها وبيانها، فمن أبى الإتيان بها أو بعضها فأعلنوا بأننا مسلمون منقادون لأمر الله وأمر رسوله ولا يضركم ضلالهم شيئاً وأنكم بريئون منهم وما هم عليه ﴿...تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ...﴾(آل عمران:من الآية ٦٤)وخلاصة ما في الآيتين: أن يُعبد الله وحده ويكفر بما سواه ويُتبَرأ منه.

(ودليل شهادة أن محمداً رسول الله قوله تعالى﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾، ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله: طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما عنه نهى وزجر وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع)

ذكر الدليل على شهادة أن محمداً رسول الله، وفيها إثباتُ أنه رسولٌ من عند الله ووصفه الله بأوصاف عظيمة فهو من جنس البشر يعرفون نسبه وصدقه، ووصفه بالرحمة بأمته ﴿..عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾ (التوبة من الآية:١٢٨) أي: يشق عليه ما فيه كُلْفة عليكم ولذا فهو مبعوث بالحنفية السمحة

﴿..حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ...﴾أي:حريص على هدايتكم وإنقاذكم من النار وتعليم جاهلكم، فالرسول صلى الله عليه وسلم حريصٌ غاية الحرص على هداية أمته حتى خاطبه الله بقوله﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾(الكهف:٦).

﴿..بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ..﴾أي: أنه مع المؤمنين رؤوف بهم رحيمٌ عليهم أشد عليهم شفقةً من أمهاتهم وآبائهم، يرحم الصغير ويوقر الكبير ويحنو على اليتيم ويواسي المصاب ويعطي المحروم.

والأدلة على إثبات رسالته كثيرة كما في قوله سبحانه﴿..مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ..﴾(الفتح: من الآية٢٩)، ﴿..وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ..﴾(آل عمران: من الآية١٤٤) ﴿... وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ..﴾(الأحزاب: من الاية ٤٠).

قوله: **(ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع)**

بَيَّن هنا معنى الشهادة بأنه رسول الله، وهذا من أحسن التفاسير لها على إيجازه

فبيَّن أنه لا تتم هذه الشهادة إلا بأربعة أمور:

١/ طاعته فيما أمر، فإن كان ما أمر به واجباً وجب امتثاله وإن كان مستحباً فيستحب امتثاله من غير إلزام، والحكمة من بعث الرسول:أن يُطاع في أوامره كما قال سبحانه﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾(النساء: من الآية٦٤)، والقرآن مليءٌ بالأمر بطاعة الله ورسوله وأنه لُبُّ الإيمان.

فمن أخل بامتثال الأوامر فقد أخل بتحقيق هذه الشهادة بقدر ما نقص عنده من الامتثال.

٢/ وتصديقه فيما أخبر، فيجب تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم بكل ما أخبر به وأنه حقيقةٌ لا خيال؛ لأنه الصادق المصدوق والأمين على وحي الله فلا ينطق عن الهوى، فكل شيء أخبر به من أخبار الماضين أو المغيبات المستقبلية أو الوعود الربانية أو ما يكون بعد الموت في القبر أو بعد البعث فيجب الإيمان والتصديق به ولا يجوز أن يُشك في شيء منه، فإن لم يحتمله عقله فيؤمن به ويكل معناه وكيفيته إلى عالمه، فما صح به النقل نؤمن به مثل حديث الإسراء والمعراج وأنه حقيقة، وأشراط الساعة وما يكون في القيامة من الحوض والميزان والأهوال.

٣/ واجتناب ما عنه نهى وزجر، فإذا نهى عن شيء فليجتنبه، إن كان محرماً فيحرم فعله أو مكروهاً فيكره فعله من غير تحريم لقوله تعالى﴿..وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾(الحشر: من الآية٧)، وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم..."،وقال صلى الله عليه وسلم كما في البخاري:"كلكم يدخل الجنة إلا من أبى، قالوا ومن يأبى يا رسول الله قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى"، وقد أخل بهذا كثيرٌ من الناس فارتكبوا ما نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأفعال في العبادات والمعاملات والأخلاق وهذا يدل على ضعف الإيمان.

٤/ أن لا يُعبد الله إلا بما شرع، وهذا الأصل الرابع فالعبادات ليست بالأهواء ولا البدع وإنما باتباع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو المتابعة وهو حقيقة الشهادة.

وقد جاءت النصوص آمرةً بالإتباع وناهيةً عن الابتداع كما قال سبحانه﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...﴾(الأعراف: من الآية١٥٧)، وقوله تعالى﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ..﴾(آل عمران: من الآية٣١)، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم:"عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها

بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.."رواه الترمذي وصححه،وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "كلكم يدخل الجنة إلا من أبى" قالوا: ومن يأبى يا رسول الله قال: "من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى" وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" وقال ابن مسعود رضى الله عنه اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم.

فمن ابتدع وعبد الله بما لم يشرعه الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحقق شهادة أن محمداً رسول الله؛ لأنه اتهمه بأنه لم يكمل الدين.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فواجب على الأمة متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في الاعتقادات والأقوال والأفعال... فتوزن الأقوال والأفعال بأقواله وأفعاله فما وافق منها قُبل وما خالف منها رُدَّ على فاعله كائناً من كان. ولذا ثبت في الصحيحين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ".

فهذه الأمور الأربعة لا تتم شهادة أن محمدا رسول الله إلا بها فمن كمَّلها فقد حقق هذه الشهادة تحقيقاً كاملاً، ومن نقص منها شيئا فقد نقص من تحقيقها بمقدار ما نقص فمستقلٌ ومستكثرٌ.

وتفاوت الناس في الإيمان ليس بتفاوتهم بكثرة الصلاة والصيام والأعمال فقط وإنما بتفاوتهم بتحقيق الإتباع.

قوله: (ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾، ودليل الصيام قوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، ودليل الحج قوله تعالى﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾)

بيَّن المؤلف أدلة بقية أركان الإسلام وهي الصلاة والزكاة والصيام والحج وهي من تفسير التوحيد؛ وذلك أن من مقتضى الإتيان بالشهادتين الإتيان بحقوقها من الأركان والواجبات؛ ولذا قال عليه الصلاة والسلام"من قال لا إله إلا الله حرم ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله"، ومن آكد حقوقها فعل الفرائض من الأركان والواجبات، ثم ساق دليلاً على وجوب كل ركن من هذه الأركان الخمسة وهو ظاهر.

(المرتبة الثانية الإيمان وهو بضع وسبعون شعبة فأعلاها قول لا إله الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان، وأركانه ستة: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، والدليل قوله تعالى﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ...﴾، ودليل القدر قوله تعالى﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾)

بيَّن هنا المرتبة الثانية من مراتب الدين، ويمكن بيانها في عدد من الفوائد:

الأولى: تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة: أن الإيمان قول وعمل، فهو اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان.

وهذا التعريف للإيمان هو الذي دل عليه الكتاب والسنة وحكى الإجماعَ عليه غير واحد منهم ابن عبد البر وشيخ الإسلام حيث نقل الأدلة على ذلك.

الثانية: والإيمان شعبه كثيرة فهي أكثر من سبعين خصلة وشعبة كما في حديث أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال "الإيمان بضعٌ وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان" متفق عليه، منها شُعَبٌ تتعلق بالقلب كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وشعب تتعلق باللسان كقول لا إله إلا الله، وأمور تتعلق بالجوارح كإماطة الأذى عن الطريق والكلام على شعب الإيمان وأنواعها له مقام آخر.

الثالثة: والإيمان له أركان ستة يجب الإتيان بها والإقرار بها:

الأول: الإيمان بالله، ويتضمن الإيمان بوجود الله وربوبيته والإيمان بألوهيته وأنه المستحق للعبادة وحده دون من سواه بل هو لبُّ الإيمان وأول الإسلام وآخره، ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم وبما صح من أسمائه وصفاته من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ.

الثاني: الإيمان بالملائكة، ويتضمن الإيمان بوجودهم وبما بلغنا من صفاتهم وأحوالهم، فهم مخلوقون من نور، وأن عددهم لا يحصيه إلا الله، وأنهم عبادٌ طائعون لله ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(التحريم:من الآية٦) ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾(الأنبياء :٢٧)، ونؤمن بما علمنا من أعمالهم ووظائفهم، فمنهم موكلٌ بالوحي، ومنهم موكلٌ بالقطر والمطر، ومنهم الموكل بقبض الأرواح، ومنهم الموكل بالأجنة، ومنهم الموكل بالنار، ومنهم الموكل بسؤال الأموات في قبورهم، ومنهم الحفظة ومنهم الكتبة، وغير ذلك من أعمالهم التي وكلهم الله بها.

الثالث: الإيمان بكتب الله، وذلك يتضمن الإيمان بأن الله أنزل كتباً من عنده، التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم، وأن لله كتباً سوى هذه أنزلها على أنبيائه لا يَعرف أسماءها وعددها إلا الذي أنزلها.

وأيضاً يتضمن الإيمان بالقرآن العظيم وأنه كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، ويتضمن العمل بأحكامه وتصديق أخباره ﴿..وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ..﴾(المائدة: من الآية٤٨).

الرابع: الإيمان بالرسل، أي:ويجب الإيمان بالرسل الذين بعثهم الله، وذلك يتضمن:

١/ الإيمان بأن كل رسول أرسله الله أن رسالته حقٌ من عند الله، فمن كفر برسالة واحد فقد كفر برسالة الجميع؛ لأنه مكذب لله كما قال سبحانه﴿..كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾(الشعراء:١٠٥)، فجعلهم مكذبين لكل الرسل مع أنه لم يكن معه غيره، ويتضمن محبتهم والإقتداء بهم.

٢/ ويتضمن الإيمان بأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتمهم لا نبي بعده، وأن يعمل بشريعته ويقتدي به في هديه على ما تقدم بيانه.

الخامس: الإيمان باليوم الآخر.

والمراد به: يوم القيامة وما يكون فيه، وسمي بالآخر؛ لأنه لا يوم بعده حيث يستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، فيؤمن بكل ما جاءت الأدلة بحصوله بعد الموت من:

١/ أهوال القبر والسؤال فيه.

٢/ ويؤمن بالبعث بعد الموت.

٣/ ويؤمن بالحساب والجزاء.

٤/ ويؤمن بالجنة والنار.

فلا يتم الإيمان باليوم الآخر إلا بالإيمان بهذه كلها...

السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره.

وهذا الركن السادس ويتضمن أموراً وهي:

١/إيمانه أنه لا يكون شيء في العالم عامة وعلى الإنسان خاصة إلا بتقدير الله ومشيئته، ويؤمن أن الله يعلم كل شيء كان ويكون، وأنه مكتوب عنده كما قال سبحانه ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ...﴾(الحج:من الآية٧٠)، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:"إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.."، وقوله سبحانه ﴿..وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ...﴾(الأنعام: من الآية١٣٧)، وقوله﴿..اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ...﴾(الزمر:من الآية٦٢).

* فهذه أمور أربعة لابد من الإتيان بها في الإيمان في القدر:

١/ إيمانه بعلم الله بالمقدر قبل وقوعه.

٢/ ومشيئته له.

٣/ وكتابته له قبل حصوله.

٤/ وأنه خالقه وموجده.

ومع ذلك فالعبد مأمور بالصبر على البلاء والشكر عند النعماء من القدر، ومأمورٌ باتخاذ الأسباب كما قال سبحانه ﴿..فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾(النبأ:من الآية٣٩).

فإذا حقق العبد هذه الأركان الستة فإنه مؤمن.

ثم الناس يتفاوتون في الإيمان بحسب تفاوتهم في تحقيقها وقوة الإيمان والإتيان بلوازمها وواجباتها ومكملاتها...

فمنهم من إيمانه كالجبال رسوخاً ومنهم دون ذلك، ومنهم من إيمانه ضعيف يُقَلِّبُه ويرده أي شيء نسأل الله الثبات... ثم ساق الأدلة على هذه الأركان الستة، فالآية الأولى ذكر فيها خمس أركان للإيمان، والآية الثانية ذكر الركن السادس وهو الإيمان بالقدر، والدليل من السنة حديث جبريل المشهور.

(المرتبة الثالثة: الإحسان ركن واحد وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والدليل قوله تعالى ﴿... إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُون﴾، وقوله﴿..وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ *الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وقوله﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ...﴾)

هذه المرتبة الثالثة وهو الإحسان، وهو أعلى مقامات الإيمان ومن وصل إليه فهو من المؤمنين حقاً والصالحين صدقاً، وقد جاء الثناء على أهل الإحسان في القرآن والسنة وبيان علو منزلتهم كما قال سبحانه﴿.. بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ...﴾(البقرة: من الآية١١٢)، وقوله تعالى﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى...﴾(لقمان: من الآية٢٢)، وقوله سبحانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (النحل:١٢٨)، ووعد المحسنين بالزيادة بقوله﴿... لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ..﴾(يونس: من الآية٢٦).

والإحسان هو: أن يصل يقين العبد إلى أن يعبد ربه كأنه يراه بقلبه، وينظر إليه في حال عبادته ولذا قال:(أن تعبد الله كأنك تراه) أي: تستحضر قربه لك وأنك بين يديه كأنك تراه، وهذا يوجب للعبد الخشية والخوف والهيبة والتعظيم كما في رواية:"أن تخشى الله كأنك تراه...".

ويُوجب النصح في العبادة وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها، ويوجب له البعد عن المحارم وعدم الاقتراب منها، وهذه مرتبة عالية تنقل العبد إلى مراتب عالية، وفي حديث مرسلٍ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:"كيف أصبحت يا حارثة"قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال:"انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة"، قال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر عرش ربي وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة كيف يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار كيف يتعاوون فيها، قال"أبصرت فالزم عبدٌ نَوَّرَ اللهُ الإيمانَ في قلبه".

* وقوله (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) هذا الكلام قيل إنه:

١/ تابع للأول وهو كالتعليل، أي: فإن لم تكن تراه فاستحضر أنه يراك على كل حال.

٢/ وقيل: إن هذه مرتبة ثانية للإحسان وهي: أن تعبد الله وأنت موقن أن يراك كما لو أنه أمامك وأنت تشاهده يراك فهو كذلك يراك وإن لم تره أمامك، فمن أيقن برؤية الله له واستقر هذا في قلبه جاءته الفضائل من كل جهة، فالإحسان ركنه الأعظم أن يعبد العبد ربه كأنه يراه، وأن يستقر في قلبه.

* ولهذه المرتبة آثار عظيمة على العبد في حياته وعبادته ومنها:
معيَّةُ الله وحفظه لمن هذه حاله ﴿.. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾(النحل:١٢٨).
أنه طريق إلى إصلاح العبادة ظاهراً وباطناً.
أما باطناً فهو داعي للإخلاص وعدم الالتفات إلى غير الله؛ لأنه مستشعر أن الله يراه فكيف يلتفت إلى سواه، والظاهرة لأنه موقن أن الله يراه ويسمعه إن دعا أو صلى أو قرأ أو جاهد كما قال تعالى:"وأنا معه إذا ذكرني..".
أن أهل الإحسان أعظم الناس أنساً بالطاعة وأكثرهم طمأنينة وراحة؛ لأنهم مع الله في كل حال بل خلواتهم أعظم من خلطاتهم وأحب إليهم.
كان حبيب أبو محمد رحمه الله يخلو في بيته ويقول: من لم تقر عينه بك فلا قرَّت عينه، ومن لم يأنس بك فلا أَنِس.
وقال مسلم بن يسار رحمه الله: ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بالله عز وجل.
وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: أعلى الدرجات أن تنقطع إلى ربك وتستأنس إليه بقلبك وبعقلك وجميع جوارحك حتى لا ترجو إلا ربك ولا تخاف إلا ذنبك وترسخ محبته في قلبك حتى لا تُؤْثر عليه شيئاً.
وأحوال هؤلاء وأقوالهم كثيرة وهي تدل على الأنس بالله وهذا لا يكون إلا بأمور منها الوصول إلى مرتبة الإحسان، ومن أراد الوصول إليها فعليه أن يستشعر اطلاع الله عليه وقدرته وعلمه ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ...﴾(يونس: من الآية٦١)،
وقال سبحانه﴿.. وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ..﴾(الحديد: من الآية٤)، وفي الصحيحين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:"إن الله قبل وجهه إذا صلى"، وفي الترمذي"إن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت".
فمن استحضر هذا الأمور وجاهد نفسه على بلوغ درجة الإحسان واستعان بربه فإنه سيصل بإذن الله، وإذا بلغها أحس أن للحياة طعماً وللعبادة لذة وللخلوة أنساً لم يحس به من قبل ذلك نسأل الله الكريم من فضله.
فهذه مراتب الدين الثلاث.
فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم ولا عكس.
(والدليل من السنة حديث جبريل المشهور عن عمر بن الخطاب قال بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال:يا محمد أخبرني عن الإسلام قال"أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً"فقال: فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان قال"أن تؤمن بالله وملائكته

وكتبه ورسله واليوم الأخر وتؤمن بالقدر خيره وشره"قال صدقت قال فأخبرني عن الإحسان قال"أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"قال فأخبرني عن الساعة قال"ما المسئول عنها بأعلم من السائل"قال فأخبرني عن أماراها قال"أن تلد الأمة ربتها وأن تر الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان"قال فمضى فلبثنا ملياً فقال"يا عمر أتدري من السائل"قلت الله ورسوله أعلم قال"هذا جبرائيل أتاكم يعلمكم أمر دينكم".)

وتقدم شرح غالب هذا الحديث في مراتب الدين، وبقي الكلام على ذكر الساعة في الحديث.

قوله: (فأخبرني عن الساعة) المراد بها: يوم القيامة، متى تقوم؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم (ما المسئول عنها بأعلم من السائل) يعني: أن الخلق كلهم سواء في علم الساعة، فكلهم لا يعلمون متى تقوم؛ لأنها مما استأثر الله بعلمه، ولهذا في حديث ابن عمر □ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال"مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله"، ثم قرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(لقمان:٣٤).

ثم بيَّن علامات الساعة التي إذا خرجت دلت على قرب وقوعها...

* والساعة لها علامات كثيرة كبرى وصغرى لكنه ذكر هنا علامتين:

الأولى: أن تلد الأمة ربتها والمراد بهذه العلامة:

١/ قيل: هو إخبار عن كثرة الفتوح وكثرة السراري آخر الزمان، فيكون ولدها من سيدها بمترلة سيدها.

٢/ وقيل: هو إشارة إلى كثرة العقوق آخر الزمان فيتعامل الابن والبنت مع أمه معاملة السيد لرقيقه. واختاره ابن حجر، وقيل غيره ص٨٦ جامع العلوم والحكم، ١/١١٤ فتح الباري،ص١٥٠حصول المأمول.

الثانية: أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان.

والمراد بهذا: أن أسافل الناس يصيرون رؤساءهم، وتكثر أموالهم حتى يتباهون بطول البنيان وزخرفتها وإتقانها، وهذا إشارة إلى اختلال الموازين وإقبال البادية على الحاضرة ومبالغتهم في البنيان وتعاليهم في الدنيا، كما روى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:"لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع"، وروى الإمام أحمد عن أنس □ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:"بين يدي الساعة سنوات خداعة، يُخَوَّن فيها الأمين ويؤتمن الخائن، ويُصَدَّق الكاذب ويُكَّذب الصادق، وينطق فيها الرويبضة"قالوا: وما الرويبضة؟ قال"السفيه في أمر العامة".

وقد شاهدنا هذا كله في زماننا، وكله دليل على اختلال الموازين آخر الزمان، وانفراط أمر الدنيا والدين، ولو ألقيت نظرة إلى حال أهل زماننا لرأيت شيئاً كثيراً من هذا قد وقع والله المستعان.

[الأصل الثالث: معرفة نبيك محمد – صلَّى الله عليه وسلَّم –]

قال المؤلف – رحمه الله –: "الأصل الثالث: معرفة نبيكم محمد – صلَّى الله عليه وسلَّم – وهو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل – عليه وعلى نبينا أفضلُ الصلاة والسلام – وله من العمر ثلاث وستون سنة، منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبيًّا رسولاً، نُبِّئ باقرأ، وأرسِل بالمدثر، وبلده مكة، وهاجر إلى المدينة، بعثه الله بالنذارة عن الشرك، ويدعو إلى التوحيد، والدليل قوله – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ – ٧]، ومعنى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ ينذر عن الشرك، ويدعو إلى التوحيد، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾؛ أي: عظِّمه بالتوحيد، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾؛ أي: طهر أعمالك عن الشِّرك، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرجْز: الأصنام، وهجرها: تركها والبَراءة منها وأهلها، أخذ على هذا عشرَ سنين يدعو إلى التوحيد، وبعد العشر عُرِجَ به إلى السماء، وفرضت عليه الصلوات الخمس، وصلى في مكة ثلاث سنين، وبعدها أمر بالهجرة إلى المدينة.

والهجرة: الانتقالُ من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وهي باقية إلى أنْ تقومَ الساعة، والدَّليل قوله – تعالى –: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ – ٩٩]، وقوله – تعالى –: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]؛ قال البغوي – رحمه الله تعالى –: "سببُ نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكة لم يهاجروا ناداهم الله باسم الإيمان"، والدليلُ على الهجرة من السنة قوله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: "لا تنقطعُ الهجرة حتى تنقطعَ التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلعَ الشمس من مغربها".

فلما استقرَّ بالمدينة، أمر ببقية شرائع الإسلام مثل الزَّكاة والصوم والحج والجهاد والأذان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك من شرائع الإسلام، أخذ على هذا عشر سنين، وبعدها تُوفي صلوات الله وسلامه عليه، ودينه باق، وهذا دينه لا خَيْر إلا دلَّ الأمةَ عليه، ولا شرَّ إلا حذرها منه، والخير الذي دل عليه التوحيد وجميع ما يُحبه الله ويرضاه، والشر الذي حذر منه الشرك وجميع ما يكرهه الله ويأباه.

بعثه الله إلى الناس كافَّة، وافترض الله طاعته على جميع الثقلين الجن والإنس، والدَّليل قوله – تعالى –: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وأكمل الله به الدين، والدليل قوله – تعالى –: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، والدليل على موته – صلَّى الله عليه وسلَّم – قوله – تعالى –: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠ – ٣١]".

لا شَكَّ أن معرفة النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – هو أصل أصيل من أصول الدين، وأكبر دلالة على ذلك أنَّ الإنسان في قبره يسأل عن هذا الأصل العظيم، ومما يبين أيضًا معرفة النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – أنَّ للنبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – فضلاً على أمته، فهو – صلَّى الله عليه وسلَّم – الواسطة في تبليغ شرع الله – جل وعلا – وهو الذي أخرج الناس بفضل الله – عزَّ وجلَّ – من الضلالة إلى الهدى، ومن الظَّلام إلى النور، فلا شكَّ أن معرفة هذا الأصل والتأمُّل فيه من أهم الأمور التي ينبغي للعبد أن ينظر فيها، ولا شك أن الرسالة التي جاء بها النبيُّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – إنَّما جاء بها لأُمته ومعرفة الرسالة تتضمن معرفة الرسول – صلَّى الله عليه وسلَّم.

والكلام على هذا الأصل من عشرة أوجه:

الوجه الأول: نسبه – صلَّى الله عليه وسلَّم –:

ومعرفة نسبه – صلَّى الله عليه وسلَّم – هو من تمام المعرفة به – صلَّى الله عليه وسلَّم – وأفادنا بذلك المؤلف، فقال: "وهو مُحمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام"، إذًا نسب النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – في العلية من النسب، فهو في ذِرْوة النسب وأشراف الناس، فلا شكَّ أن قريشًا من علية القوم، وكذا النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – من قريش، ولذلك ابنُ القيم – رحمه الله – يذكر هذا النسب الشريف، فيقول: "وهو خير أهل الأرض نسبًا على الإطلاق، فلنسبه من الشرف أعلى ذِروة، وأعداؤه كانوا يشهدون له بذلك، ولهذا شهد له به عدوه إذ ذاك أبو سفيان بين يدي ملك الرُّوم، فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيلته، وأشرف الأفخاذ فَخِذُه" إلى نهاية كلامه رحمه الله؛ "انظر: زاد المعاد، ١/٧١م".

والنبيُّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – له عدة أسماء، وجاء في حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلَّى الله عليه وسلَّم – قَالَ: ((إن لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ))؛ متفق عليه.

فأحمد ومحمد لا شك أنه لم يسمَّ النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – بذلك إلا لأنَّه يحمد أكثر مما يحمد غيره، فسُمي محمدًا وأحمد، فلا شَكَّ أن في هذا الاسم أيضًا معاني أخرى.

أما بقيةُ الأسماء، فقد جاءت في الحديث نفسه، فقال النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر))؛ لأن النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – قد بعث لينشر التوحيد، ويُبطل كل كفر، ثم قال: ((وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي))، فله النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – الشفاعة يومَ القيامة، وهو من قريش، وقريش لا شك أنَّها من أعلى أنساب العرب، وهو من ذريه إسماعيل، لا من ذرية إسحاق، بخلاف أنبياء بني إسرائيل، فكلهم من ذرية

يعقوب بن إسحاق، أمَّا النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – فهو من ذريه إسماعيل، وكلتا الذريتين ترجعان إلى إمام الحنفاء إبراهيم – عليه السَّلام – وجاء في "صحيح مسلم" من حديث وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ، يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صلَّى الله عليه وسلَّم – يقول: ((إن اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)).

الوجه الثاني: معرفة عمره – صلَّى الله عليه وسلَّم – ومعرفة مولده.

قال المؤلف: "وله من العمر ثلاث وستون سنة، منها أربعون قبل النُّبوة، وثلاث وعشرون نبيًّا رسولاً".

– النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – ولد في شعب بني هاشم في مكة صبيحةَ يومِ الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول عام الفيل، وقيل: في يوم الثاني عشر من ربيع الأول وهو الأشهر؛ "انظر: البداية والنهاية، ١/٢٥٩".

– له من العمر ثلاث وستون، دلَّ على ذلك حديث عائشة – رضي الله عنها – أنَّها قالت: "توفي النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – وهو ابن ثلاث وستين"؛ متفق عليه، وهذا محل خلاف بين أهل السير والتواريخ إلاَّ أن الصحيح الذي عليه جمهورُ المؤرخين أنه توفي وله من العمر ثلاث وستون سنة.

– منها أربعون قبل النبوة، دلَّ على ذلك حديثُ أنس – رضي الله عنه – وفيه: "أنزل عليه وهو ابن أربعين"؛ رواه البخاري، وإذا عرفنا أنَّ عمره ثلاث وستون سنة، فهذا يدل دلالة قاطعة في أن مدة النبوة والرسالة ثلاث وعشرون سنة.

الوجه الثالث: معرفة حياته – صلَّى الله عليه وسلَّم – من حيث النبوة والمنشأ، والكلام على هذا الوجه من أمرين:

الأمر الأول كما قال المؤلف: "نُبِّئ باقرأ، وأرسل بالمدثر".

وقول المؤلف هذا يفيدنا بأن هناك فرقًا بين النبوة والرِّسالة كما تقدم بيانه، وأول ما أُنزل عليه – صلَّى الله عليه وسلَّم – وحصلت نبوته بـــ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وأما رسالته، فأول ما حصلت فإنَّها حصلت بقوله – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١].

أولاً: نقول: نبئ باقرأ؛ يعني: بقوله – تعالى –: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وذلك أنه – صلَّى الله عليه وسلَّم – حبب إليه الاختلاء، فكان يَختلي بغار حراء، فجاءه جبريلُ وهو في غار حراء، وقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١– ٥]، وذلك يوم الاثنين في رمضان وهو في غار حراء؛ "انظر: البداية والنهاية، ٣/٦".

ثانيًا: نقول: أُرسل بالمدثر؛ أي: صار رسولاً بهذا النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ١ – ٢]، فهذا أولُ أمر أُمر به النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – مقرونًا برسالته، والنبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – حينما أُرسل بقوله – تعالى –:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ إنَّما كان ذلك بعدما رجع من غار حراء بعدما نزل عليه الملَك باقرأ، قال له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، وسيأتي بيانُ هذه الآيات بإذن الله - تعالى - في الوجه الرابع.

الأمر الثاني: قال المؤلف "وبلده - صلَّى الله عليه وسلَّم - مكة".

ولد النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - في مكة، ونشأ فيها، ولم يَخرج منها إلاَّ تلك الأيام التي أرضعته حليمة السعدية بنت أبي ذؤيب السعدية في بادية بني سعد، ثم رجع إلى مكة في حضانة جده عبدالمطلب ثم عمه أبي طالب؛ لأنَّ أمه آمنة بنت وهب ماتت وعمره ست سنين، وبعدما أوحي إليه وهو في سن الأربعين بَقِيَ في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى التوحيد؛ حيث بعثه الله - تعالى - بالنِّذارة عن الشرك، ويدعو إلى التوحيد، دلَّ على ذلك قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥].

الوجه الرابع: وقفة مع آيات المدثر:

هذه الآيات التي جاء بها المؤلف - رحمنا الله وإياه تعالى - فيها دلالة على الأمر بنشر التوحيد، والبدء بالدَّعوة إليه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾؛ أي: يا أيها المتدثر بثيابه والمتزمل بها قم فأنذر قومك مما هم عليه من الإشراك والبعد عن الله - عزَّ وجلَّ - روى جابر بن عبدالله الأنصاري، قال: قال رَسُولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ قَالَ فِي حَدِيثِهِ: ((فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوتًا مِنَ السماءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الذِي جَاءَنِي بِحِرَاءِ جَالِسًا عَلَى كُرْسِي بَيْنَ السماءِ وَالأَرْضِ))، قال رَسُولُ اللَّهِ - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((فَجُئِثْتُ مِنْهُ فَرَقًا فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَملُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَأَنْزَلَ الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]؛ متفق عليه، وهذا فيه بيانُ أن ﴿يا أيها المدثر﴾ ليست أول ما أنزل، وإنَّما ﴿اقرأ﴾.

قال تعالى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾؛ أي: انهض وخوِّف المشركين، وادعُهم وحذرهم من العذاب، وأنَّهم إذا لم يدخلوا في التوحيد فإنَّهم لا بد أنْ ينالهم من عذاب الله ما ينالهم؛ لأنَّ قوله: "فأنذر" النِّذارة لا بد أن تكون من شيء مَخُوف وشيء فيه عذاب وعقاب.

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾؛ أي: عظمه بالتوحيد، وصِفْهُ بالكبرياء والعظمة - جل وعلا - وأنه أجلُّ وأكبر من أنْ يكونَ له شريك كما يقول الكفار.

ثم قال: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، وهذه الآية اختلف المفسرون فيها على تفسيرين:

قيل: كما أورده المصنف؛ أي: طهرها من أنجاس الإشراك مع الله - عزَّ وجلَّ - والبعد عن التوحيد إلى التوحيد وإلى عبادة الله - عزَّ وجلَّ - وإفراده بالعبادة، وبه قال جمهور المفسرين.

وقيل: المقصود الطهارة الحسية؛ أي: ثيابك الملبوسة طهرها، وبه قال بعض المفسرين كابن جرير الطبري والشوكاني.

فالأولى طهارة المعنوية والثانية طهارة الحسية، وكلا التفسيرين مراد كما ذكر ابن كثير؛ حيث قال: "وقد تشمل الآية جميعَ ذلك مع طهارة القلب، فإن العربَ تطلق الثياب عليه"؛ "انظر: تفسير هذا الآيات في تفسير ابن كثير، وانظر: فتح القدير، ٣٢٤/٥، وانظر: فتح الباري، ٦٧٩/٨".

ثم قال: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، ﴿المدَّثر﴾، والمقصود بالرجز الأصنام وهي الأوثان.

ثم بعد ذلك قال: ﴿وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾، ولهذه الآية أيضًا تفسيران:

التفسير الأول: أي لا تَمنن على ربِّك بما تبذله من الدَّعوة إلى التوحيد بأنك قد تعبت في هذا المقام، وهذا المجال العظيم، وهو الدعوة إلى التوحيد.

والتفسير الثاني: معناه لا تعطِ العطية، وتلتمس أكثر منها؛ لأنَّ من الناس مَن ربَّما يعطي عطية، وهو يلتمس أكثر من هذه العطية، وهذا فيها منة، ليست قولية، وإنَّما منة فعلية؛ "انظر: المرجعين السابقين: تفسير ابن كثير، وفتح القدير".

ثم قال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، أخبره الله - عزَّ وجلَّ - أن هذا الطريق يحتاج إلى صبر، وأنه لا بُدَّ أن يواجه مخالفة في ذلك؛ لأنه بهذا يخالف أهواء الناس.

الوجه الخامس: مدة دعوة النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - إلى التوحيد وعروجه إلى السماء؛ يقول المؤلف - رحمه الله - : "أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد، وبعد العشر عُرِجَ به إلى السماء وفُرِضَت عليه الصلوات الخمس، وصلى في مكة ثلاث سنين، وبعدها أُمر بالهجرة إلى المدينة"، إذا أضفنا هذه العشر السنين إلى الأربعين صارت خمسين، وقلنا: إنَّه مكث في مكة ثلاث عشرة سنة، وليس في هذا تعارض مع قول المؤلف؛ لأنَّه قبل هذه العشر سنوات، مكث ثلاثَ سنين يدعو بخفاء، وهذه تسمى الدعوة الخفية - الدعوة في السر - قبل أن يؤمر النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - بأن يدعوَ جهرًا، فمقصود المؤلف الدعوة الجهرية، كانت عشر سنين، وقيل: إنَّه دعا عشر سنين، ثم مكث ثلاث سنين في مكة يصلي، ثم هاجر إلى المدينة.

بعد هذه العشر سنين عُرج به إلى السماء، وفرضت عليه الصلواتُ الخمس، فالصلوات الخمس إنما فرضت في مكة.

والإسراء والمعراج لا شَكَّ أنهما أمران ثابتان، وهما لا يثبتان عن طريق العقل، ولذلك هذا الذي جعل قريشًا يكذبون النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - في هذا؛ لأنَّهم حكَّموا عقولهم، والصحيحُ أنَّهما ثابتان بالنص والإجماع، ثابتان بالكتاب والسنة؛ قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١]، وفي السنة كما في "صحيح البخاري"، وأيضًا هو ثابت بإجماع العلماء.

والإسراء لغة: هو السير بالشخص ليلاً.

وأما شرعًا: فهو سير جبريل - عليه السَّلام - بالنبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - من مكة إلى بيت المقدس بدابة يقالُ لها: "البُراق: وهي دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض"، فمن مكة إلى بيت المقدس يُسمى إسراءً، ومن بيت المقدس إلى

السماء يُسمى عروجًا، ولَمَّا حكَّمت قريشٌ عقولَها، لَم تصدقْ النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – وكانوا يؤمنون بالمنامات، ويقولون: لا بأسَ، نَحن نصدقك بأن هذا كان منامًا قد نصدقك، لكن أنْ يكون ذلك حقيقة، فإن هذا لا نصدقك عليه، ولذلك كانت هذه المسالة من مسائل العقائد، التي ينبغي للإنسان أنْ يؤمنَ بها ويجزم بها، والصحيح أنَّ النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – عرج بجسده وروحه حقيقةً لا منامًا.

والمعراج في اللغة: هي الآلة التي يُعرج بها وهي المصعد.

وأمَّا شرعًا: فهو السلم الذي عرج به النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – وهذه الآلة لم يأتِ بيانها وكيفيتها، فالله أعلم بها.

والإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة، وفي معراجه فرضت الصلوات الخمس، ثم مكث النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – بعد ذلك بمكة ثلاث سنوات يُصلي، فأربعون سنة، ثم النبوة، ثم عشر سنين يدعو إلى التوحيد وثلاث سنوات مكث في مكة يُصلي، هذه كلها ثلاث وخمسون سنة، بقي من عمره – صلَّى الله عليه وسلَّم – عشر سنوات قضاها في المدينة، وعليه فإن الإسراء والمعراج يكون قبل هجرة النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – للمدينة بثلاث سنين.

الوجه السادس: هجرته – صلَّى الله عليه وسلَّم – وتعريف الهجرة:

والكلام على هذا الوجه من عدة أمور:

أولاً: متى هاجر النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم؟

تبيَّن لنا مِمَّا تقدم أنَّ النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – بعدما أتمَّ ثلاثًا وخمسين سنة هاجر عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم إلى المدينة.

ثانيًا: تعريف الهجرة:

الهجرة في اللغة: هي التركُ والخروج من بلد أو أرض أو نحو ذلك.

وشرعًا عرفها المؤلف، وقال: الهجرة الانتقال من بلد الشرِّك إلى بلد التوحيد.

ثالثًا: ما مناسبة مَجيء الهجرة في هذا الأصل أو في هذه العقيدة؟ لماذا جاء بها المؤلف؟

لا شَكَّ أن لها مناسبة وثيقة في الولاء والبَرَاء، فحينما يتبرَّأ الإنسان من الكفار والمشركين، فإنَّه يتبرأ من الشرك وأهله، وإذا تبرأ من الشرك وأهله، وكان لا يستطيعُ أن يقيم شعائر الدين، كان لزامًا عليه ومن متمِّمات البراءة أن يَخرج من بلده إلى بلاد الإسلام مهاجرًا إلى الله ورسوله؛ ليعبدَ الله – جل وعلا – ويُقيم شعائر الله – جلَّ وعلا – ويتبع ما أمر به النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – والهجرة شأنها عظيم كما سيأتي، ولكن هذه الهجرة الواجبة لا تكون واجبة إلا بشروط كما سيأتي.

رابعًا: ما بلدُ الإشراك التي يهاجر منها، وما بلد الإسلام التي يهاجر إليها؟

هناك تعاريف كثيرة في تحديد بلاد الإسلام، وفي تحديد بلاد الشرك، ومن أفضل التعاريف أنْ يقالَ: بلاد الإشراك هي البلاد التي لا يقام بها شعائر الإسلام، فهذه تسمى بلاد إشراك، فقد يقيم أقلية من المسلمين في بلاد الإشراك يستطيعون أنْ يقيموا بعضَ الدين، لكنه إذا لم يكن الإسلام شاملاً وعامًّا في هذه البلاد، فالبلاد تسمى بلادَ إشراك، فلا يقول قائل على بلاد فرنسا – على سبيل المثال – أو على أي بلاد من بلاد الإشراك: إنَّ هذه بلاد إسلام، وإنَّها فيها مسلمون، ويستطيعون أنْ يقيموا شعائر الدين، لا بل هي بلاد إشراك، لكن من حيث حكم الهجرة ووجوبها سيأتي بعد قليل شروط الوجوب.

خامسًا: حكم الهجرة:

المؤلف بيَّن أن النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – أُمِرَ بالهجرة، الأمر يقتضي الوجوب، وبيَّن أنها فريضة على هذه الأمة، وهذا يُفيدنا بأنَّ أصل هذه العبادة من حيث التشريع الوجوب، ولكنَّها قد تكون مستحبة، قد يكون البقاء في بلاد الإشراك مستحبًّا، وكل هذا بحسب الحال، ولبيان حكم الهجرة نقول ما يلي:

نقول: دل على وجوب الهجرة الكتاب والسنة والإجماع، وأمَّا من الكتاب فما استدل به المؤلف قول الله – تعالى –: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، فلامهم الله – جل وعلا – لعدم هجرتهم، وبيَّن أنَّهم أوقعوا الظلم على أنفسهم، فأثموا بذلك.

قال الله – تعالى –: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ – ٩٩].

س: من خلال الآيات السابقة نقول: ما شروطُ وجوب الهجرة؟

١ – القُدرة على الهجرة: فإذا كان لا يستطيعُ أن يهاجر، كأنْ يكونَ في بلاد إشراك، ويكون الخروج من هذه البلاد ممنوعًا، أو كأنْ يكونَ عليه حظرٌ أو نحو ذلك، فإنه يسقط في حقه الوجوب؛ لأنَّه عاجز عنه، والواجبات تسقط بالعجز، ويدُلُّ على قول النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – في الحديث المتفق عليه: ((إذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم))، وموطن الاستدلال على هذا الشرط من الآيات السابقة هو قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، وهذا فيه بيان أن الأمر مفسوح وواسع في الهجرة بخلاف العاجز، فليس معه سعة يستطيع معها الهجرة.

٢ – أن يكون غير مستطيع على إظهار دينه، قد يكون الإنسانُ يستطيع الهجرة، ولكنه في الوقت نفسه يقول: أستطيع أن أُظهر ديني، أصلي في المساجد، وآتي بجميع شرائع الدين، ولا يكون هناك شيءٌ يعيقني عن تطبيق الدين، فالهجرةُ غير واجبة حينئذٍ، فينتقل من الوجوب إلى الاستحباب، سواء كانت البلاد بلاد إشراك أم فسق، لكن إذا قال: أنا أستطيعُ

الهجرة وفي الوقت نفسه لا أستطيع أنْ أظهر ديني، فحينئذ نقول: لا زالَ الأمر عليك واجبًا من حيث الهجرة، وموطن الاستدلال على هذا الشرط من الآيات السابقة هو قوله: ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧]، ومستضعفين؛ يعني: أذلاء لا يستطيعون أن يقيموا شعائر الدين.

عرفنا مما سبق أن الهجرة لا تجب إلا بشرطين: القُدرة على الهجرة، وعدم التمكن من إظهار شعائر الدين، حينئذ تكون الهجرة واجبة، أمَّا إذا اختل شرط من هذين الشرطين، فإنَّها تنتقل إلى الاستحباب.

قال ابن كثير: "نزلت هذه الآية الكريمة عامَّة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حرامًا بالإجماع وبنص هذه الآية"؛ "انظر: تفسير الآية في تفسير ابن كثير، سورة النساء، آية ٩٧".

ومن خلال ما سبق نستطيع تصنيف الناس في الهجرة من بلاد الإشراك إلى ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: من تَجب عليه الهجرة، وهو من توفر فيه الشرطان السابقان: القدرة على الهجرة، وعدم التمكن من إظهار شعائر الدين.

الصنف الثاني: من لا هجره عليه، وهو العاجز عن الهجرة، والعاجز عن الهجرة عدة أصناف، إمَّا لمرض فلا يستطيع، أو ليس عنده مال يذهب به، أو مُكرهٌ على الإقامة في بلاد الشرك، فحينئذ لا تَجب عليه الهجرة؛ لأنَّ الله – عزَّ وجلَّ – قال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٩٧].

الصنف الثالث: من تستحب له الهجرة: وهو مَن يقدر على الهجرة، لكنه مُتمكن من إظهار دينه، كما تقدم بيانه.

إذًا عرفنا أنَّ الهجرة إمَّا أن تكون واجبة أو مُستحبة، وقد يكون عدم الهجرة مستحبًّا في حق أشخاص مُعينين، كأن يَحتاج المسلمون عينًا لهم هناك؛ يعني: يَحتاجون مَن يتفقد أحوالَ المشركين، ويُخبرهم ويعطيهم أخبار المشركين أولاً بأول، وخططهم ومكائدهم، فحينئذ يكون الأمر مستحبًّا أمَّا إذا كان أمر البقاء لا ينطبقُ إلا عليه، وكان الأمر حتمًا للمسلمين، فحينئذ يكون البقاءُ واجبًا على حسب وجوب أو احتياج المسلمين؛ "انظر: المغني، لابن قدامة، ٥١٥/١٠، والفتح، لابن حجر، ١٩٠/٦".

سادسًا: حكم من ترك الهجرة الواجبة:

لو أنَّ شخصًا تحققت فيه شروطُ وجوب الهجرة ولم يهاجر، فلا شكَّ أنه يعد عاصيًا ظالِمًا لنفسه، كما ذكر الله – تعالى – ولكنه لا يَخرج من دائرة الإسلام بتركه للهجرة، وهذا ما أراد بيانه المؤلف حينما جاء بقول البغوي، قال المؤلف: " قال البغوي – رحمه الله تعالى –: "سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكة لم يهاجروا ناداهم الله باسم الإيمان"، "وهذا هو المحكي عن جماعة من السَّلف – رحمهم الله.

وبعدما ذَكَر المؤلف الدَّليلَ من الكتاب على الهجرة، جاء بما يدُلُّ على الهجرة من السنة فقال: "والدليل على الهجرة من السنة قوله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها))، والحديث رواه أحمد وأبو داود، وبهذا يكون دلَّ على الهجرة الكتابُ والسنة والإجماع".

مسألة: كيف نجمع بين هذا الحديث الذي أورده المؤلف في شأن الهجرة وبين قول النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((لا هجرةَ بعد الفتح))، والحديث مُتفق عليه، ومعناها لا هجرة بعد فتح مكة، وقد فتحت مكة؟

والجواب: أنَّ المقصود بقول النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم –: "لا هجرةَ بعد الفتح"؛ أي: لا هجرةَ من مكة بعد فتحها، وذلك أنه بالفتح تحولت مكةَ من كونها دار كفرٍ إلى دار إسلام، ولما صارت دار إسلام، انتهى وجوب الهجرة منها، أو استحباب الهجرة منها، وأما الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، فهي مستمرة؛ لقوله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلعَ الشمس من مغربها))؛ رواه أحمد وأبو داود، وللعموم في قوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

الوجه السابع: استقرارُه – صلَّى الله عليه وسلَّم – في المدينة، واكتمال الشريعة.

بعدما دعا النبيُّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – إلى التوحيد، هاجر إلى المدينة، واستقر بها، ثم أُمِر ببقية شرائع الدِّين، جاءت الزكاة وتحديد أنصبتها والصيام والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والأذان وغيرها من شرائع الدِّين، أما الصلاةُ فتقدم أن مشروعيتها كان في مكة حينما عُرِج بالنبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – الصلاة هي الوحيدة التي كانت في مكة، وأمَّا ما سواها من شرائع الإسلام إنَّما كان بالمدينة؛ لأنَّ الأهم هو الانشغال بأساس الأعمال وهي العقيدة، فهي التي دعا لها النبيُّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – طيلة هذه السنوات، وبعدما استقرت، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وحققوا التوحيدَ جاءت بقية شرائع الدِّين، وهذا يُبين لنا أن أمر العقيدة وشأنها شأن عظيم، فالصَّلاة كانت قبل الهجرة، وأمَّا البقية فهي بعد الهجر، وليس معنى هذا أن دعوة النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – للتوحيد توقَّفت عند هذا، بل ظل – صلَّى الله عليه وسلَّم – يدعو إلى التوحيد حتى توفاه الله – تعالى – لكنه في أول رسالته كان شأنه الأكبر والأول هو تحقيق التوحيد ونبذ الشرك، حتى حقَّق الله – تعالى – له ذلك، ثم هاجر إلى المدينة.

مسألة: كيف يُجمع بين أنَّ الزكاة فرضت في المدينة بعد ما استقر النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – فيها، وبين هذه الآية التي نزولها كان في مكة، وهي قوله – تعالى –: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤]؟

قد يُشْكل أمر الزكاة، فقد قال الله – تعالى –: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤]، والمراد بالزكاة في هذه الآية على قول أكثر العلماء، كما ذكر ابنُ كثير هي زكاة الأموال، والآية لا شكَّ أن نزولها في مكة، وهذا يدُلُّ على أن الزكاة كانت قبل الهجرة، والجواب على هذا أنْ يقالَ: الزكاة التي فرضت في مكة لم تكن مقدَّرة بأنصبة معينة، وكان تحديد أنصبتها بالمدينة، كما دلَّ على ذلك الآياتُ المدنية، كقوله – تعالى –: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١].

فأصلُ الزكاة كان في مكة من دون مقادير، أمَّا بيانُ المقادير والأنصبة، كان في المدينة بعد ذلك.

وأمَّا الصومُ فقد فرض في السنة الثانية من الهجرة، وأمَّا الحجُّ ففيه خلاف، قيل: سنة ست، وقيل: سنة عشر، وقيل: سنة تسع، وهي أرجح الأقوال؛ "انظر: زاد المعاد، ٢/١٠١".

والجهادُ كذلك فرض بعد الهجرة، وأمَّا قبلها، فلم يأذن الله – تعالى – للمسلمين أنْ يجاهدوا؛ لأنَّهم ضعفاء ليس لهم شوكة وقوة، والآذان كذلك فرض في المدينة في السنة الأولى من الهجرة على القول الراجح، ووردت أحاديثُ تدل على أن الأذان فرض قبل الهجرة، لكنَّها أحاديث معلولة؛ "انظر: زاد المعاد، ٣/٦٩، وانظر: فتح الباري، ٢/٧٨، ٧٩".

الوجه الثامن: وفاته – صلَّى الله عليه وسلَّم –:

مكث النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – بعد هجرته في المدينة عشر سنين، وإذا أضفنا هذه العشر السنين للثلاث والخمسين سنة في مكة كانت ثلاثًا وستين، وهو عمر النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – ثم توفي بعدها بعد عمر حافل بتأسيس العقيدة، وقمع الشرك وأهله، ونشر التوحيد، وشرائع الدين وتطبيقها، لا خير إلاَّ دل الأمة عليه، ولا شر إلاَّ حذَّرها منه، دلَّ على ذلك ما جاء في "صحيح مسلم" من حديث عبدالله بن عمر – رضي الله عنه – قال: قال رسولُ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((إنه لم يكُن نَبِيٌّ قَبْلِي إلا كان حَقًّا عليه أن يَدُلَّ أُمَّتَهُ على خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ))، وفسَّر المؤلفُ هذا الخير، وهذا الشر بكلام وافٍ، فقال: "والخير الذي دَلَّ عليه التوحيدُ، وجميع ما يُحبه الله ويرضاه، والشر الذي حذر منه الشركُ وجميعُ ما يكرهه الله ويأباه".

– توفي – صلَّى الله عليه وسلَّم – ودينه باقٍ إلى قيام الساعة، توفي يومَ الاثنين على المشهور من أقوال أهل العلم في الثاني عشر من ربيع الأول؛ قال ابن كثير: "لا خلافَ أنه – صلَّى الله عليه وسلَّم – توفي يومَ الاثنين، والمشهور أنَّه في الثاني عشر من ربيع الأول"؛ "انظر: السيرة النبوية، لابن كثير، ٤/٥٠٥".

الوجه التاسع: وجوب طاعته – صلَّى الله عليه وسلَّم – على الجن والإنس:

حيث بعثه الله – تعالى – إلى الناس كافَّة، وهذا فيه بيان أن دينه باقٍ وشامل لجميع الناس العرب والعجم، فليس لليهودي أن يقول: أنا أتَّبع موسى – عليه السَّلام – وليس للنصراني أن يقول: أنا أتَّبع عيسى – عليه السَّلام – في هذا الزمن؛ لأنه مأمور باتباع محمد – صلَّى الله عليه وسلَّم – جاء في "صحيح مسلم" من حديث أبي هريرة عن رَسُولِ اللهِ – صلَّى الله عليه وسلَّم – أَنَّهُ قَالَ: "وَالذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصْرَانِي، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ بِهِ، إلا كان مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ))، وهذا فيه دلالة على وجوب اتِّباع محمد – صلَّى الله عليه وسلَّم – ودينه – صلَّى الله عليه وسلَّم – لجميع الناس، وافترض الله طاعته على جميع الثقلين الإنس والجن، والدليل قوله – تعالى –: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، و"جميعًا" تفيد العموم، وكمَّل الله به الدين، والدليل: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

الوجه العاشر: الدلالة على موته – صلَّى الله عليه وسلَّم –:

استدل المؤلف على موته – صلَّى الله عليه وسلَّم – بقوله – تعالى –: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزُّمر: ٣٠ – ٣١]، وهذا فيه بيان أن النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – أنه قد مات حقًّا، وهناك من الصحابة من أنكر ذلك؛ لشدة الوقع عليهم إلاَّ أن أبا بكر الصديق – رضي الله عنه – قال كلمة عظيمة: "من كان يعبد محمَّدًا فإنَّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت"، وهذه الكلمة ليست سهلة، تصوَّر الرجل الذي كانوا يرجعون إليه في فتاويهم، في أمورهم، في مشكلاتهم، في كل شؤونهم، يأتي المهموم، ويأتي المستفتي، ويأتي الناس ويُحاربون معه، ويعلمهم التوحيدَ، ويعلمهم الدين، ويعلمهم ما يترل عليه، ثُمَّ ينقطع عنهم، ثم ماذا يكون، تكون فاجعة، لكن النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – ربَّى أصحابه خير تربية، فقال أبو بكر – رضي الله عنه –: "من كان يعبد محمدًا، فإنَّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإنَّ الله حي لا يَموت"، وهذا فيه تعليق بالله – جل وعلا – لا تعليق بالأشخاص، ولذلك يُخطئ أهل الضلالة من الصوفية وغيرهم الذين يعلقون الناس بساداتِهم ونحو ذلك.

وفي "صحيح البخاري" من حديث عائشةَ – رضي الله عنها – قالت: "... دخلَ عليَّ عبدالرحمن وبيده السِّواك، وأنا مسندةٌ رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – فرأيته يَنظُرُ إليه، وعرفتُ أنه يحبُّ السواكَ، فقلت: آخذهُ لك؟ فأشار برأسه أنْ نعم، فَتناولتهُ فاشتدَّ عليه، وقلتُ أُلَيِّنهُ لك؟ فأشار برأسِ أنْ نعم، فلينته، فَأَمَرَّهُ وبينَ يَدَيه رَكوة فيها ماءٌ، فجعلَ يُدخِل يديهِ في الماء، فيمسحَ بهما وجههَ، يقول: لا إله إلا الله، إنَّ للموت سكراتٍ، ثم نصبَ يدَه فجعلَ يقول: اللهُمَّ الرفيق الأعلى، حتى قُبِضَ ومالت يده".

فصل في [البعث وحكم من أنكره]

قال المؤلف – رحمه الله –: "والناس إذا ماتوا يبعثون، والدليل قوله – تعالى –: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، وقوله – تعالى –: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٨]، وبعد البعث محاسبون ومجزيون بأعمالهم، والدَّليل قوله – تعالى –: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ومن كذب بالبعث كفر، والدليل قوله – تعالى –: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن : ٧]".

بعد ما انتهى المؤلفُ من الكلام على الأصول الثلاثة وما يتعلق بها، عرَّج على مسائل مهمة ينبغي للمسلم أنْ يتنبه لها منها: وجوب الإيمان بالبعث وحكم من أنكره، ومنها بيان مهمة الرُّسل، وأنَّهم مبشرون ومنذرون، ومنها أن التوحيد لا يتحقَّق بالعبادة لله – تعالى – فقط، بل لا بد من الكفر بالطواغيت، وبيَّن رؤوسَ الطواغيت، وختم بذكر رأس الأمر وعمود الإسلام، وختم بذِروة سنامه، وهو الجهاد في سبيل الله – تعالى.

والكلام على قول المصنف في هذا الفصل من عدة وجوه:

الوجه الأول: معنى البعث.

البعث لغة: الإرسال والنشر.

وشرعًا: إحياء الأموات يومَ القيامة، وهو خروجهم من القُبور ليوم البعث والنُّشور، حين ينفخ في الصور النفخة الثانية.

الوجه الثاني: دلَّ على البعث الكتابُ والسنة والإجماع، أمَّا من الكتاب، فمِمَّا استدل به المؤلف قوله – تعالى –: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، وقوله – تعالى –: ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧ – ١٨]، وأمَّا من السنة، فالأدلَّة كثيرة، منها قول النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((يُحشر الناس يومَ القيامة حفاةً عُراةً غرلاً))، وهذا مَرَّ بنا في حديث جبريل، وهذا فيه دلالة على أنَّهم يبعثون أيضًا، **وأمَّا الإجماعُ، فقد أجمع أهلُ العلم على ذلك.**

الوجه الثالث: وجوب الإيمان بالجزاء والحساب بعد البعث:

لأنَّ المؤلف قال بعد ما بيَّن وجوب الإيمان بالبعث: "وبعد البعث محاسبون ومجزيون بأعمالهم، والدليل قوله – تعالى –: ﴿وَللهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالحُسْنَى﴾ [النَّجم: ٣١]، وهذا فيه دلالة على وجوب الإيمان بالحساب، والحساب معناه: إيقاف الله – تعالى – العبادَ على أعمالهم التي عملوها وما كانوا عليها في الدُّنيا.

الوجه الرابع: هل الكفار يحاسبون، أو يدخلون النار مباشرة؟

هذا فيه خلاف بين أهل العلم، منهم مَن قال: إنَّهم لن يُحاسبوا، ومنهم من قال: إنَّهم سيحاسبون، وهذا هو أرجح الأقوال، ومما يدُلُّ على أنَّهم سيحاسبون قول الله – تعالى –: ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، هذا حساب لهم يناديهم، ويقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، تزعمون وهذا فيه حساب لهم، ولا شَكَّ أنَّ المنادى هنا هم المشركون، وأيضًا قوله – تعالى –: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣]، والخلود إنَّما يكون للكافر، وقد عُرِض على الميزان، فخفت موازينه، وهذا يدل على حسابه.

الوجه الخامس: من كذب بالبعث فقد كفر:

لأنَّه كذب بشيء جاء به النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – ولأنه كذب بشيء يتعلَّق بأركان الإيمان، فهو مكذب لله ورسوله، والله – عزَّ وجلَّ – بَيَّن ذلك، وكذَّب المشركون بالبعث، فقال الله – عزَّ وجلَّ – مبيِّنًا تكذيبهم: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، هذا هو قول الله – تعالى – في إثبات هذه الحقيقة حقيقةِ البعث، وأمر رسوله – صلَّى الله عليه وسلَّم – بأن يقسم على البعث، وذلك لأهميته وجلالة قدره، وأنَّه من الأمور التي تَحتاج إلى تأكيد بالقسم؛ حتَّى يذهب الريب والشك من قلوب الكفار، وأيضًا يدل على كفرهم قوله – تعالى –: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٩ – ٣٠]، وأجمع العلماء على أن من أنكر البعث فقد كفر.

– ولعظم أمر البعث جاء إثباته في القرآن والسنة بطرق كثيرة.

– فتارة بالتصريح: كما في الآية السابقة.

– وتارة بتذكير الإنسان بنشأته الأولى، كقوله – تعالى –: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨ – ٧٩].

– وتارة بالاستدلال بإنبات النبات على إحياء الأموات، كقوله – تعالى –: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠]

– وتارة بالإشارة والتأمُّل في خلق السموات والأرض، كقوله – تعالى –: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

– وتارة بتنزيه الله عن العبث؛ إذ إنَّه لو لم يكن هناك بعث، لكانت الأوامر والنواهي والجزاء من العبث، كقوله – تعالى –: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

- وتارة بذكر القصص والوقائع التي تدُلُّ على البعث، كقصة الذي مرَّ على قرية، وهي خاوية على عروشها، فأماته الله مائة عام ثم بعثه، وقصة قتيل بني إسرائيل، وقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة إبراهيم والطُّيور الأربعة، وقصة أصحاب الكهف.

فصل في [أن جميع الرسل مبشرون ومنذرون، وبيان وجوب الكفر بالطاغوت]

قال المؤلف – رحمه الله –: "وأرسل الله جميعَ الرسل مبشرين ومنذرين، والدليل قوله – تعالى –: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وأولهم نوح – عليه السَّلام – وآخرهم مُحمد – صلَّى الله عليه وسلَّم – والدليل على أنَّ أولهم نوح – عليه السَّلام – قوله – تعالى –: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وكل أمة بعث الله إليها رسولاً من نوح إلى محمد، يأمرهم بعبادة الله وحْدَه وينهاهم عن عبادة الطاغوت، والدَّليل قوله – تعالى –: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وافترض الله على جميع العباد الكفرَ بالطاغوت والإيمان بالله؛ قال ابن القيم – رحمه الله تعالى –: "الطاغوت ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع"، والطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله، ومن عبد وهو راضٍ، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومن ادَّعى شيئًا من علم الغيب، ومن حكم بغير ما أنزل الله، والدليل قوله – تعالى –: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهذا معنى لا إله إلا الله، وفي الحديث: ((رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذِروة سنامه الجهاد في سبيل الله))، والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم".

والكلام على قول المصنف هنا من عدة وجوه:

الوجه الأول: معنى التبشير والإنذار:

أمَّا التبشير، فمعناه: ذكر الجزاء والثَّواب لمن أطاع.

والإنذار: العكس من ذلك ذكر العقاب، وتخويف العاصي، والكافر من عقاب الله – تعالى – وسخطه.

مسألة: وهل يكون التبشيرُ في شيء مكروه، أو أن البشارة تكون دائمًا محمودة؟

الأصل أنَّها تستخدم في الشيء المحمود، وهذا هو المعهود عند الناس، ولكن قد تأتي على شيء مذموم؛ قال الله – عزَّ وجلَّ – ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤]، والعذاب لا شَكَّ أنَّه شيء مذموم، وسماه الله – عزَّ وجلَّ – بشارة.

الوجه الثاني: ما استدل به المؤلف:

استدل المؤلف على إرسال الرسل مبشرين ومنذرين بقوله – تعالى –: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، دلَّت هذه الآية على أمرين:

أولاً: دلت على وظيفة الرسل والأنبياء بأنهم مبشرون ومنذرون.

والثانية: دلَّت على أن الله – عزَّ وجلَّ – لم يُبقِ للخلق حجةً عليه – جل وعلا – بعد الرسل، فلما أرسل الرسل، كان ذلك حجة على الخلق في أنَّهم يعبدونه – جلَّ وعلا.

الوجه الثالث: أول الرسل وآخرهم:

أول الرسل نوح – عليه السَّلام – ولماذا لم يكن آدم – عليه السَّلام؟

الجواب: أنَّ آدم – عليه السَّلام – نَبيٌّ، وليس برسول، ودلَّ الكتاب والسنة على أن نوحًا – عليه السَّلام – هو أول الرسل، فمن الكتاب قوله – تعالى –: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، كما أوحينا: الوحي يكون إلى الرَّسول، فأوحي إلى نوحٍ – عليه السَّلام – وأوحي إلى النبيين من بعده، فهو أول الرسل، ودلَّ على ذلك من السنة ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة حديث الشفاعة الطويل، وفيه قال النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((فَيَأْتُونَ نُوحًا فسَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُل إِلَى الأَرْضِ)).

وخاتم النبيين محمد – صلَّى الله عليه وسلَّم – كما دل على ذلك نصوص كثيرة منها قول الله – تعالى –: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

الوجه الرابع: جميع الأنبياء أمروا بتوحيد الله واجتناب الطواغيت:

والدَّليل على ذلك قوله – تعالى –: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، هذا فيه استدلال على أنَّ كل الأنبياء أمروا بأن يعبد الله – عزَّ وجلَّ – وحْدَه، وأن يكفر بالطاغوت، لا بد من هذين الأمرين، فالتوحيد لا يتم إلا بهما.

بدأ يذكر أشياء لا بُدَّ أن يتنبه لها الإنسان في عقيدته، فقال بعد ذلك في بيان هذه العقيدة وهذه الرسالة:

الوجه الخامس: معنى الطاغوت وأصنافه:

الطاغوت في الأصل مشتق من الطغيان، والطُّغيان هو: مُجاوزة الحد في كلِّ شيء، ومنه قوله – تعالى –: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]؛ أي: جاوز حدَّه.

وأمَّا في الاصطلاح، فأفضل تعريف ما ذكره المؤلف نقلاً عن ابن القيم في كتابه "إعلام الموقعين،١/٥٠"؛ حيث قال: "قال ابن القيم – رحمه الله –: معنى الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع"، ومن خلال هذا التعريف نستطيع أنْ نعرفَ أصناف الطواغيت، فلا تكاد تخرج الأصنافُ عن هذه، وحينما نقول: ثلاثة أصناف، فليس معناه أنَّهم ثلاثة أشخاص، بل يدخل تحت كل صنف عدة أمثلة:

الصنف الأول: معبود: فإذا تعدَّى العبد قدره الذي ينبغي له؛ أي: جاوز الحدَّ، فصار هذا العبد معبودًا من دون الله – تعالى – فهو طاغوت؛ لأنَّ الأصل أن يكون عابدًا لا معبودًا، فمن عُبد وهو راضٍ، فهو طاغوت.

الصنف الثاني: متبوع: وهذا يدخل فيه الكهان والسَّحرة الذين يُتبعون فيما يقولون، وكذلك يدخل فيه علماءُ السوء الذين يزينون الكفر والضَّلال والبدع، فيحللون ذلك ويزينونه، ويزينون للحكام الخروج عن شريعة الإسلام؛ ليستبدلوها **بالقوانين الوضعية، فهولاء طواغيت؛ لأنَّهم تجاوزوا حدَّهم**.

الصنف الثالث: مطاع: وهذا يدخل فيه الحكام والأمراء الخارجون عن طاعة الله، فيحرمون ما أحل الله، أو يُحلون ما حرم الله، فهم طواغيت لمجاوزتهم الحد.

الوجه السادس: رؤوس الطواغيت:

تقدَّمت أصناف الطواغيت، وسنوضح الآن رُؤوس الطواغيت، فما الفرق بين الاثنين؟

الجواب: أصناف الطَّواغيت يدخل تَحتها عدة أمثلة، كما تقدَّم، فالأصنافُ كثيرون، بخلاف الرؤوس، فهي معدودة، وهي خمسة، وما عداها فهو متفرع منها، فمثلاً إبليس طاغوت هذا رأس من رؤوس الطَّواغيت لا نستطيع أن ندخلَ معه صنف من جنسه هو رأس من رؤوس الطواغيت، والرُّؤوس خمسة، وهذا ثابت بالتتبُّع والاستقراء وهم:

الرأس الأول: إبليس لعنه الله: فهو أول الطواغيت وهو أكبر الطَّواغيت، وأعظمها شرًّا، وأخطرها أمرًا؛ لأنه الداعي لعبادة غير الله – تعالى – قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

الرأس الثاني: من عبد وهو راضٍ، فهو طاغوت وهذا تقدَّم التمثيلُ به في أصناف الطواغيت، وهو من علم أنَّ الناس يصرفون له شيئًا من العبادة، وهو راضٍ بما يفعلونه، فهو طاغوت، ولو لم يدع الناس لعبادته أو صرف شيء من العبادة له، فهو طاغوت لرضاه بذلك؛ قال الله – تعالى –: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، وبذلك نخرج من عُبد وهو غير راضٍ، كعيسى – عليه السَّلام.

الرأس الثالث: من دعا الناس إلى عبادة نفسه، حتى وإن لم يعبد، وإنَّما فقط دعا الناس إلى أن يعبدوه أو يصرفوا له شيئًا من العبادة، فهو رأس من رؤوس الطَّواغيت، ومثل هذا بعض مشايخ الضلال من الصوفية وغيرهم الذين يدعون الناس لأنْ يصرفوا لهم شيئًا من العبادة.

الرأس الرابع: من ادَّعى شيئًا من علم الغيب، يَدخل فيه المنجمون والعرافون والكهنة والسحرة الذين يدَّعون الغيب، فهؤلاء أيضًا طواغيت؛ لأنَّهم نازعوا الله – تعالى – فيما يَختص به؛ قال الله – تعالى –: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ – ٢٧].

الرأس الخامس: من حكم بغير ما أنزل الله، كمن يحكم بالقوانين الوضعية، نابذًا حكم الله – تعالى – فهو رأس من رؤوس الطَّواغيت؛ قال الله – تعالى –: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، فسماهم الله – عزَّ وجلَّ – كفارًا.

- فإن قيل: كيف نجمع بين هذه الآية الدالة على كفر من حكم بغير ما أنزل الله، وبين قوله - تعالى -: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله - تعالى -: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]؟

أهل العلم على قولين في ذلك:

منهم من قال: إنَّ كل من حكم بغير ما أنزل الله، فهو كافر فاسق ظالم، فتنطبق عليه الآيات الثلاث.

ومنهم من قال بالتفريق في الوصف بحسب الحال الذي حكم فيها بغير ما أنزل الله، قالوا:

إنَّ حكم بغير ما أنزل الله مُعتقدًا أنَّ حكمه أصلح وأنفع، أو اعتقد أنَّه مثل حكم الله - تعالى - فهذا لا شكَّ في كفره، فهو كافر كفرًا أكبر مُخرجًا من الملة.

أمَّا إذا لم يَحكم بما أنزل الله، ولم يستخف به، ولم يعتقد أنَّ غير حكم الله أحسن، فهذا يكون ظالمًا.

أمَّا إذا حكم بغير ما أنزل الله، وهو يعتقد أن حكم الله أنفع وأصلح، وأن غيره لا خير فيه، ولكنَّه حكم من أجل مجاراةٍ للمحكوم له، أو من أجل رشوة أو نحو ذلك، فهذا يكون فاسقًا، فالأوصاف الثلاثة الكفر والظُّلم والفسق تتنزل تبعًا لحال الحامل لهذا الحكم؛ "للاستزادة انظر: رسالة: تحكيم القوانين، للشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله — ومدارج السالكين، ٢/٢٦٦"

الوجه السابع: ما استدل به المؤلف:

وهذا هو الذي ختم به المؤلف وبعده حديث فقط، قال: والدَّليل قوله - تعالى -: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، لا إكراهَ في الدين؛ أي: إنَّه لا يُكره أحد للدخول في دين الإسلام، والرُّشد هو: الهدى الموصل إلى سعادة الدارين، والغي ضده: الظلام المفضي إلى البُعد وإلى الشقاء وإلى الخسران، والعروة الوثقى هي "لا إله إلا الله" كلمة التوحيد، التي لا انقطاعَ لها، وهذا لمن آمن بالله - تعالى - وكفر بالطاغوت، فقد استمسك بالعقد المحكم البيِّن الذي يريده الله جل وعلا.

مسألة: كيف نجمع بين أنَّه لا يُكره أحد في الدُّخول في دين الإسلام، وبين قتال المشركين؟ أليسَ هذا فيه نوعٌ من الإكراه قد يأتينا أحد بهذه الشبهة، فيقول: أنتم تأمرون بالجهاد، وتقاتلون المشركين، وهذا فيه إكراه ومعارض لقوله - تعالى -: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾؟

والجواب: إنَّه وقع خلاف بين أهل العلم في الجمع بين الحالين:

فقيل: إنَّ قوله – تعالى –: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ منسوخة بآيات القتال، وضعَّف هذا المحققون كابن جرير وابن العربي والشوكاني وغيرهم؛ "انظر: تفسير ابن جرير الطبري، وتفسير الشوكاني فتح القدير لهذه الآية، وانظر: أحكام القرآن لابن العربي، ١/٢٧٥".

وقيل: إنَّ الآية محكمة وليست بمنسوخة، ولكنَّها خاصَّة باليهود والنصارى والمجوس، فلا يُكرهون على الدُّخول في الإسلام، بخلاف الوثنيين فإنَّهم يكرهون واختاره ابن جرير وبعض المحققين.

وقيل: إنَّ الآية محكمة وليست بمنسوخة ولا يوجد تعارض فيها مع قتالِ المشركين والأمر بالجهاد، فإنَّ القتالَ والجهاد إنَّما هو لكل من وقف وأصبح عائقًا في وجه الإسلام، فإنه يقاتل، بخلاف من لم يكن كذلك، فالأصلُ ألا يكره في اعتناق الإسلام.

الوجه الثامن: قول المؤلف "وفي الحديث: ((رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذِروة سنامه الجهاد في سبيل الله))".

وهو جزء من حديث معاذ بن جبل رواه الترمذي في جامعه وقال: "حديث حسن صحيح"، وقد صححه جماعة كالنووي – رحمه الله – وضعفه جماعة كابن رجب – رحمه الله – في شرحه للأربعين النووية.

"رأس الأمر الإسلام"، وهذا فيه بيان أنَّ لكل شيء رأسًا، والأمر هنا المراد به الدين، يعني: رأس الدين الإسلام.

"وعموده الصلاة"، وهذا فيه بيان عَظمة وفضل الصَّلاة في هذا الدين، وأنَّها من هذا الدين، كالعمود للخيمة، وليس للخيمة قيام بلا عمود، وكذا الإسلام ليس له قيام في الشخص بلا صلاة.

((وذِروة سنامه الجهاد في سبيل الله))، وذروة الشيء أعلاه، ولذا يقال لذروة البعير وأعلاه: سنامه، وكذلك يقال في الإسلام، فإنَّ ذِروةَ سنامه الجهاد في سبيل الله، وهذا يُفيد أن أعلى خصال الدين الجهاد في سبيل الله.

والجهاد والصلاة هما العبادتان اللتان جاء الحثُّ عليهما، والأمر بهما مكررًا، بل نقل شيخ الإسلام – رحمه الله –: بأنه لم يرد من الأحاديث قدر ما ورد في الصلاة والجهاد حثًّا وأمرًا وفضلاً، وهذا يجعل الإنسان يَحرص على أن يكون نصيبه وافرًا في الأمرين، والجهاد في سبيل الله يكون له مراتب، ذكرها ابن القيم في كتابه القيم "زاد المعاد" يَحسن الرجوع إليها، فمن الجهاد ما يكون جهادًا للكفار، ومنه ما يكون للمنافقين، ومنه ما يكون للعُصاة، ومنه ما يكون بالسيف والسنان، ومنه ما يكون بالعلم والبيان.

الوجه التاسع: خاتمة المؤلف:

قال المؤلف في ختام هذه الرِّسالة الوجيزة بكلماتها، والوفيرة بمضمونها: "والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم".

وهو ختام عظيم ختم به المؤلف هذه الرِّسالة، فهو بعد بيان ذلك كله ردَّ العلم لله – تعالى – وهكذا ينبغي للمؤمن دومًا أن يتبرأ من حوله وقوته، وأنه ليس له ذلك إلا بالله – تعالى – ويردُّ العلم لله – تعالى – فهو المتفضل — سبحانه – ثم الصلاة على النبي، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.